السلطان عبد الحميد الثاني

مذكراتي السياسية

١٨٩١ - ١٩٠٨

مؤسسة الرسالة

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م
الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

مؤسسة الرسالة : بيروت - شارع سورية - بناية
(صمدي وصالحة)
هاتف ٢٩٥٥٠١ - ص ب : ١١٧٤٦٠ - برقياً : بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه وعمل بسنته إلى يوم الدين وبعد :

فإن الامبراطورية العثمانية مرت بأدوار مختلفة ، فمن النشوء إلى القوة والتوسع ، ثم إلى التوقف والجمود ؛ ثم إلى التخلف والضعف ، ثم إلى الاضمحلال والزوال ، مثلها في ذلك مثل جميع الدول تبدأ قوية ثم تشيخ وتهرم وتموت .

ومنذ عام ١٨٨٢ م الى عام ١٩٠٩ م — وهذه الفترة جاءت عقب دور التخلف والضعف ، وسبقت عهد الاضمحلال والزوال — حاولت هذه الدولة أن تنهض من كبوتها على

أيدي سلاطين حاولوا الإصلاح ، وجربوا أن يبعثوا الحياة والشباب في جسمها المريض ، ولكن ذلك لم يفد إلا في تأجيل موعد الزوال إلى حين .

وحكم السلطان عبد الحميد الثاني يقع في هذه الفترة الإصلاحية ، وقد امتد حكمه ثلث قرن من الزمن ، وكان لشخصيته وحنكته ويقظته وتدبيره أكبر الأثر في صموده هذه المدة أمام المؤامرات الكثيرة ، والتي كانت تحاك في الجهر والخفاء لأمته ، وأصبحت تدبر ضد شخصه وللقضاء عليه وخلعه ، ورغم أنه ورث دولة مثقلة بالضعف والإفلاس والديون ، فإنه كان يتحرق للإصلاح ، ويتمنى أن تتركه الدول الأوربية الحاقدة وشأنه ، ليتفرغ إلى الإصلاح الداخلي ، وكان يقول بكل براءة وصدق بأن توقف التآمر الخارجي المعادي كاف لتوفير المال والوقت لإنجاز الإصلاح المطلوب . وكان يتحرقّ أيضاً في إقناع أبناء أمته أن لا يكونوا مطية للأجنبي المتآمر ، وأن يبقوا متمسكين بدينهم مخلصين لأمتهم عاملين بصدق من أجل النهوض والتقدم .

ولكن هيهات أن توفر له الدول الصليبية الحاقدة والحركة الصهيونية ذلك ، بل باتت كل منهما تسعى جاهدة في خلع الرجل وتشويه حكمه وإلصاق كل تهمة شائنة به وبعهده .

لقد باتت المسألة الشرقية ، والتي تتلخص بموقف الدول الصليبية من تهديد السلطان محمد الفاتح لأمن أوربا وإضعاف

دولته والقضاء عليها . لقد باتت هذه المسألة مرتكزاً أساسياً في مواقف الدول الأوربية ، وعلى ضوئها تصوغ سياستها وتحدد أقوالها وأفعالها .

وأما الحركة الصهيونية ، فقد استغلت مشاكل الدولة المستعصية ، وخاصة حاجتها إلى المال ، فجاءت تعرض على السلطان الملايين الكافية لحل كل المشاكل ، وسداد جميع الديون ، ولكن السلطان رفض بإباء وشمم ، وقال «لهرتزل» زعيم الحركة الصهيونية وللحاخام « موسى ليفي » : إن أراضي الوطن لا تباع ، إن البلاد التي امتلكت بالدماء لا تباع إلا بالثمن نفسه . وعندها قرر زعماء الحركة أن يدفعوا الملايين المعروضة على السلطان لشراء الذمم وتدبير المؤامرة لخلعه ، وللقضاء على الخلافة الإسلامية ، وتشويه تلك الخاتمة من عمر الخلافة ، حتى ينفر الناس حتى من مجرد كلمة خليفة أو خلافة .

وأما أدعياء التقدم ، ودعاة القومية الجاهلية ، فقد أصموا ذانهم عن سماع كلمة الحق ، وكانوا عبيداً مخلصين لسادتهم أعداء الله والأمة ، فكانوا يروجون الإشاعات المغرضة ويحيكون الدسائس ، وبعضهم ينتقل في أوربا من عاصمة إلى أخرى ويرتكب كل ما يشين سمعة أمته وبلاده ، ويبيع نفسه للشيطان ، ويدفن بيديه أمجاد أمته وعظمتها ، ويسرع في التدبير والتخطيط لزوالها وتدميرها .

ولذلك سنجد السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله تعالى في

« خواطره السياسية » جاهداً في كشف تآمر هذا الثالوث المجرم : الدول الأوربية الصليبية ، والحركة الصهيونية ، ودعاة القومية العنصرية .

وقد كُتب عن شخص السلطان عبد الحميد وعن عهده بعد إعلان الدستور كتب كثيرة ، وكان كثير مما كتب بإيعاز من الاتحاديين بعد تسلمهم الحكم ، أو بأيد وأقلام مشبوهة ، قصدت عن عمد تشويه سمعة الرجل ، والإساءة إلى دعوته في جمع شمل الأمة الإسلامية ، ونتج عن ذلك تحريف التاريخ ومسخ حقائقه وتبديل وقائعه . ولكن مضي الزمن كان كفيلاً بكشف زيف المتآمرين ، وفضح مكائدهم .

وظهرت الحقائق فصفعت وجوه الخونة ، وتبين للناس أن ما فعله هؤلاء كان خيانة وغدراً . وهذا ما أظهرته الأيام بالنسبة للذين تآمروا على السلطان عبد الحميد وخلعوه ، حتى لقد عرفوا هم أنهم كانوا دمى هزيلة تحركها أصابع أجنبية كافرة معروفة بعدائها للإسلام والمسلمين . وظهر للمسلم المتبصر ، بل لكل منصف ، أن الرجل كان صادقاً في عقيدته ، مخلصاً لأمته ، جاداً في الدعوة إلى النهضة والإصلاح ، وفياً في الحفاظ على كل ذرة تراب روتها دماء الشهداء .

ويسر مؤسسة الرسالة أن تسهم في إنصاف الرجل ، ورد ما أحاط بحياته من أراجيف ، وأن تقدم بلغة الضاد كتاباً يتحدث

فيه عبد الحميد عن نفسه ، وينتصب كالعملاق يرد على أعدائه وخصومه .

وقد قرىء الكتاب من قبل علماء مطلعين على هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الأمة الإسلامية ، وقاموا بوضع بعض التعليقات التاريخية والتوضيحات المفيدة .

نسأل الله أن ينتفع المسلمون من تجارب الماضي ، وأن يعدوا القوة لمواجهة تحديات الأعداء في المستقبل . والحمد لله رب العالمين .

مقدمة

السلطان عبد الحميد الثاني

بقلم المترجم

ولد السلطان عبد الحميد الثاني يوم الأربعاء في **٢١ أيلول عام ١٨٤٢** ميلادية وهو ابن السلطان عبد المجيد من زوجته الثانية ، فقد أمه ولم يتجاوز عمره سبع سنوات ، تعلم اللغتين العربية والفارسية ودرس كثيراً من الكتب الأدبية على يد أساتذة مختصين . بويع بالخلافة بعد أخيه مراد ، يوم الخميس في ٣١ آب عام ١٨٧٦ م وكان عمره آنذاك أربعاً وثلاثين سنة .

تولى الخلافة في وقت كانت الديون المترتبة على الدولة تبلغ ٢,٥٢٨,٠١٠,٨٨٥ ليرة عثمانية فاستعد لمجابهة الموقف ، ولكي يرد من اعتبار الدولة تجاه الدول الأجنبية . استقدم عدداً من

الخبراء الماليين الأوربيين ، فأعدوا له تقريراً حول إمكانية وفاء هذه الديون .

وعندما تقرر تشكيل إدارة الديون العامة كان إجمالي هذه الديون قد انخفض الى ١٠٦٤٣٧٢٣٤ ليرة عثمانية .

وفي عهده وقعت الحرب بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا (بتاريخ ١٢٩٣ رومية) وكانت هذه الحرب خسارة فادحة للدولة والأمة ، إذ راح ضحيتها خلق كثير ، وفقدت الدولة مساحات كبيرة من الأراضي . وقد حاول عبد الحميد تفادي وقوع الحرب وأراد أن يجرب الحلول السياسية ، لكن مجلس الوزراء اتخذ قراراً أدى الى نشوب الحرب . ونتيجة للهزيمة المنكرة التي مُنيت بها الدولة العثمانية ، تقدمت القوات الروسية حتى وصلت الى أسوار استانبول ، حينئذ اضطرت الدولة العثمانية الى قبول شروط قاسية بدفع تعويضات وإعطاء امتيازات للأجانب وذلك في معاهدة آياستفانوس (١)

وفي الحرب اليونانية التي وقعت عام ١٨٩٧ ، اضطر عبد الحميد الى دفع أكثر مصاريفها من خزينته الخاصة ، وكان ينفق من ماله الشيء الكثير على الفقراء والمحتاجين .

ويعتبر عبد الحميد أعظم خليفة في عصر انحطاط الدولة ، ولا شك في أنه قام بأعمال وخدمات جليلة للدولة العثمانية ،

---

(١) انظر هامش ص ٦٢ للتعرف على ما نصت عليه هذه المعاهدة .

ونذكر بعض هذه الخدمات الى الذين يتهمون هذا السلطان بمعاداة العلم . خاصة في مجال التعليم والتثقيف : فقد أنشأ الدور والمعاهد والكليات التالية : دار العلوم السياسية . الجامعة بفروعها : العلوم والحقوق والآداب . أكاديمية الفنون الجميلة . كلية الهندسة العالية . مدرسة المالية ، مدرسة التجارة ، مدرسة الزراعة العالية، مدرسة التجارة البحرية ، مدرسة الأحراج والمعادن . مدرسة اللغات ، مدرسة المعوقين ، دار المعلمات ، مدرسة الفنون النسوية .

وعبد الحميد مؤسس التعليم الابتدائي والمتوسط على الطراز الغربي ، وقد أنشأ المدارس الإعدادية والثانوية في كافة الولايات وأكثر المناطق ، فافتتح في استانبول فقط ستة مدارس ثانوية ، ومدارس ابتدائية في جميع القرى ، وجعل تعليم اللغة الأجنبية إلزامياً في المرحلة الإعدادية . وكذلك أنشأ دوراً للمعلمين في عدد كبير من الولايات ومدارس للحقوق في بعضها ، وها هي بعض المؤسسات الثقافية التي افتتحها : متحف الآثار القديمة ، المتحف العسكري ، مكتبة بايزيد ، مكتبة يلدز ، مدرسة الطب ، ثانوية حيدر باشا .

كما بنى مستشفى الأطفال ودار العجزة من ماله الخاص وكذلك مركز البريد العام ، ومبنى دار الفنون ، ودار النفوس العامة . ومد قساطل المياه ، التي أنقذت استانبول من العطش (مياه الحميدية) ، وافتتح الغرف التجارية والزراعية والصناعية .

وفي عهده جرى توسيع معمل الطرابيش وافتتاح معمل الخزف (السيراميك) ، وبعد هذا وذاك ، جرى في عهده مد الخط الحديدي من دمشق الى المدينة المنورة بطول ١٣٢٧ كم المسمى بالخط الحديدي الحجازي ، خدمة للإسلام والمسلمين .

وإصلاحات السلطان عبد الحميد العسكرية هامة جداً . استقدم عدداً من الجنرالات الألمان المختصين ، منهم : « فون دركولج ، فون هوفز ، كامب هوفز » حيث دربوا الجيش العثماني حسب متطلبات العصر ، وأرسل بعثات عسكرية الى ألمانيا ، كما افتتح الإعداديات العسكرية ، وجهز الجيش بالأسلحة الحديثة .

تأثر السلطان عبد الحميد بالحوادث التي جرت لأسلافه ، مما كان سبباً في وقوعه ببعض الأخطاء . إن مبالغات كثيرة حُكيت عنه وعن أوهامه ، لكننا نقول : إن مئات الألوف من التقارير التي وردت إليه عن كل صغيرة وكبيرة في الدولة العثمانية كافية لأن تقلب أحاسيس الانسان رأساً على عقب .

إننا لو استعرضنا قادة العالم وازدياد إحساسهم على مر الأزمان وحذرهم من كل شيء ، لما اكتفينا بإعذار عبد الحميد ، بل أوجب علينا الانصاف أن نكبر فيه جرأته وقوة أعصابه . كان يملك من الذكاء والذاكرة وقوة التأثير ما جعله يُعجب به الصديق والعدو على حد سواء ، كان متديناً من غير تعصب ، عصامياً بكل ما في الكلمة من معنى .

خُلع السلطان عبد الحميد بتاريخ ٢٧ نيسان ١٩٠٩ إثر مؤامرة اشترك فيها اليهود والاتحاديون . وأرسل الى سلانيك [1] وبقي هناك تحت الاقامة الجبرية . ثم نقل الى أحد قصور استانبول النائية ، حيث توفي بتاريخ ١٠ شباط عام ١٩١٨ إثر نزف داخلي، عن عمر يناهز الثامنة والسبعين. وجرى بمناسبة دفنه احتفال رسمي ، ووورِي التراب إلى جانب جده السلطان محمود الثاني ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنان .

---

(١) مدينة يونانية ، وكانت حينئذ تحت الحكم العثماني

مقـــدمة

الطبعة التركية ــ ١٩٧٤

الكتاب الذي بين أيديـــكم ينشر الآن لأول مرة في تركيا . وبهذا نكون قد انتهينا من الجزء الثاني من الخواطر العائدة للسلطان عبد الحميد ، إن الخواطر الأولى قد نشرت من قبل « محمود كمال » في مجلة « جمعية التاريخ التركي » بالحروف العربية ، وفي المرة الثانية نشرت بالأحرف اللاتينية باسم « دفتر خواطر السلطان عبد الحميد » مع بعض الزيادات التي أضيفت الى سلسلة الخواطر ، والتي كان « محمود كمال » قد نشرها في المجلة المذكورة ، وادعى أنه وجدها بين الأوراق في قصر يلدز ، كما ادعت دار النشر أنها استطاعت أن تحصل على دفتر صغير فيه بعض الخواطر للسلطان عبد الحميد ، فهذا الكتاب الأول لم يضم كل الخواطر ، ولم يحمل صفة كل

الخواطر . فقد يكون ما ورد فيه هو الخواطر الأولى . كما أن هذا الكتاب لا يحوي خواطر مترابطة ، وسبب هذا هو انشغال السلطان بأمور الدولة . وعدم تمكنه من إملاء كل ما يجول بنفسه ، وأغلب هذه الخواطر المسجلة كان يمليها على قريبه « بسيم بك » كلما سنحت له الفرصة . ولهذا السبب هناك انقطاع تاريخي وزمني ظاهر بين هذه الخواطر .

أما الكتاب الذي نقدمه الآن فهو الكتاب الثاني . ويختلف عن الكتاب الأول الذي صدر من قبل تحت اسم « دفتر خواطر السلطان عبد الحميد » والذي تكلمنا عنه في بداية هذه المقدمة بإيجاز . والكتاب الجديد يضم الخواطر التي كتبت بعد عام ١٩٠٩ أي بعد عزل السلطان من قبل حزب جمعية الاتحاد والترقي ؛ فالحوادث التاريخية كلها متسلسلة . والخواطر مترابطة منسجمة ، وقد جمعت من قبل السيد « علي وهبي » ونشرها باللغة الفرنسية ، وهي تظهر بوضوح شخصية السلطان عبد الحميد لا كشخص سياسي يهتم بسياسة ذلك العهد فحسب ، وإنما تبين نظرته وتصوره الديني والعالمي .

وعند المقارنة بين الكتابين الكتاب الأول « دفتر خواطر السلطان عبد الحميد » وهـذا الكتاب « السلطان عبد الحميد الثاني – خواطري السياسية » تلاحظون تحقق أغلب الحوادث التاريخية والتي انجلت بكل وضوح وظهرت على حقيقتها .

وقد أملى السلطان خواطره هذه من قبل باللغة التركية ،

ثم ترجمها إلى الفرنسية السيد « علي وهبي » ونحن نقوم الآن بترجمتها إلى اللغة التركية وتقديمها الى القراء ، علماً بأن الطبعة الفرنسية عندما نشرت كان السلطان عبد الحميد على قيد الحياة .

ونحن نفتخر بتقديم هذا الكتاب لأول مرة بعد ترجمته ، لأنه يلقي الضوء على الزوايا المظلمة من تاريخنا الحديث ، والذي لم ير النور كاملاً بعد . كما أن هذا الكتاب سوف يقدم الجواب الشافي لبعض النقاط المختلف عليها . وسيكون دليلاً للمؤرخين الباحثين عن الحقيقة ، ويتيح الفرصة للمعنيين بالتدقيق والتمحيص في تسجيل الحوادث التاريخية .

وقد قسمت الخواطر إلى خمسة أقسام دون زيادة أو نقصان .

ومن جهة ثانية نأمل لهذا الكتاب أن يفتح آفاقاً جديدة أمام المنصفين والمهاجمين الذين يتخبطون في سيل عارم من الشكوك والشبهات المحيطة بحياة وحكم السلطان عبد الحميد .

مقدمـــة

الطبعة الافرنسية

بقلم « علي وهبي »

هذا الكتاب الذي نقدمه إلى الرأي العـــام ، يلخص دور الضعف للامبراطورية العثمانية والخلافة العثمانية ، وهو موضوع يثير اهتمام الرأي العام العالمي . وهو يصور خواطر وأفكار السلطان عبد الحميد المبعد عن الخلافة . وهو تفسير لوقائع المصائب والمظالم التاريخية في الشرق ، ملقياً الضوء على الأحداث الجارية والتي كانت تدار من خلف الستار بشكل رهيب ومخيف . كما أنه تصوير دقيق من قبل الشخص الذي عاش هذه الأحداث وعاناها ورآها عن كثب . وهذه الخواطر تبرز حقيقة لا تنكر وهي مدى حنكة وذكاء السلطان عبد الحميد ، الذي قال عنه بسمارك : إنه الإنسان والحاكم الفريد الذي اعتلى عرش الخلافة العثمانية .

أعتقد أن هذه الخواطر سوف تحوز على اهتمام طبقـــة الباحثين والقراء والمثقفين العالميين . وتثير انتباههم .

السلطان عبد الحميد الثاني

مذكراتي السياسية

١٨٩١ - ١٩٠٨

خلافته ١٨٧٦ - ١٩٠٩

الفصل الأول

السياسة الداخلية

الأتراك الشباب والدستور (١٨٩٢)

إن الأمة تنسى بسرعة ، أقولها مستميحاً العذر الذين يجادلونني سياسياً دون تبصر بما يدور من وراء الستار من ألاعيب ، وما تهيئه الدول الكبرى من مؤامرات عدوانية .

إن السبب في تردي الأمور الى الحد الذي نراه في يومنا هذا ، هو مبلغ الطيش الذي بلغه الأتراك الشباب في عهد أخي المريض [١] ، أعلن سعاوي أفندي [٢] في لندن ومصطفى

---

(١) أخوه هو السلطان مراد الخامس ابن السلطان عبد المجيد خان ، ولد سنة ١٢٥٦هـ وارتقى منصب الخلافة في ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ وكان متعلماً مهذباً ميالاً للإصلاح ، محباً للمساواة بين جميع أصناف رعيته ، مقتصداً في مصروفه ، غير ميال للسرف . ولم تمض على خلافته إلا ثلاثة أشهر حتى حصل له اختلاط في عقله واتفق على خلعه .

(٢) اسمه علي سعاوي أفندي . بخاري الأصل ، أتى إلى الأستانة لطلب العلم ، وحصل على نصيب وافر من العلوم العربية ، لكنه كان ميالاً إلى إثارة الفتن وإلقاء الدسائس فنفي سنة ١٢٨٧ هـ ومكث خارجاً عن البلاد تسع سنوات ، ثم عاد بمسعى من مدحت باشا ، =

فضيلي في بروكسل أن العنصر التركي ضعف وأن الامبراطورية العثمانية انحطت أخلاقياً ومالياً ، لقد حطوا بكلامهم هذا من شأن بلادهم ، لو لم ينعدم فيهما مفهوم الشرف لما جلبا هذا العار لوطنهم الأم . أما مؤسس فرقة الحركات القومية ضيا بك فهو رجل شهم ، يطالب بالتقارب الاسلامي المسيحي وبتشكيل مجلس المبعوثان في أقرب وقت بغية تقوية الامبراطورية .

يتهمونني بالخور لأنني لم أشترك في الحركات القومية قلباً وقالباً ، لعلهم ينسون المآسي التي تعرضت لها ! لقد خلع عمي عبد العزيز [1] عن العرش ، ثم انتحر بشكل غامض ، ثم جـُنَّ أخي مراد وسـُجن .

= وعين ناظراً على المكتب السلطاني الذي يتعلم فيه أولاد السلطان عبد الحميد ، ثم عزل عن هذا المنصب ، ثم أخذ يدبر فتنة لإعادة السلطان مراد ، ولكنه في هذه المرة قتل . انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ، لمحمد فريد بك . ص ٣٦٧ .

(١) السلطان عبد العزيز ، هو السلطان الثاني والثلاثون ، والخليفة الرابع والعشرون من خلفاء بني عثمان ، ولد سنة ١٨٣٠ هـ ، وجلس على العرش في سنة ١٨٦١ هـ ، وخلع في سنة ١٨٧٦ هـ ، ومات منتحراً في قصر جراغان بعد خلعه بأربعة أيام . فكانت مدة حياته ٤٦ سنة قضى منها ١٥ سنة على العرش ، وامتاز عهده بغنى الدولة بالرجال وببعض الإصلاحات التي تمت على أيدي الصدرين الأعظمين : عالي باشا ، وفؤاد باشا ، الوزيرين المشهورين في التاريخ العثماني الحديث . انظر عصر السلطان عبد الحميد : العدد ١ ص ١٥ .

شكاوى الأرمن (١) (١٨٩١)

شيء مضحك أن نُتهم بتعذيب الأرمن واستغلالهم . لو جال المرء بنظره في تاريخ امبراطوريتنا لثبت لديه أن الأرمن كانوا دائماً أغنياء . الذين يعرفون حقائق الأمور يؤكدون تفوق الأرمن مالياً على رعايانا المسلمين . لقد تقلد الأرمن في جميع العهود أعلى المناصب الوظيفية في الدولة بما فيها منصب الوزير الأعظم . ولا أكون مبالغاً أبداً إذا قلت إن ثلث الموظفين هم من الأرمن . وفيما عدا ذلك ليس على الأرمن الخدمة العسكرية شأنهم شأن باقي الرعايا . والبدل النقدي الذي يؤدونه رمزي ، لا يكافىء أبداً الزمن الذي يمضيه المسلمون في الخدمة العسكرية . وتجارة الأرمن في وضع ممتاز . ثم ، أليست ادارة الضرائب تكــاد تكون منحصرة فيهم ؟ ومَنْ سوى الأرمن عارض إلغاء قانون الالتزام (٢) عندما

---

(١) انظر تعليقنا على المشكلة الأرمنية عام ١٨٩٦ لتتبين الأسباب الحقيقية الكامنة وراء شكاوى الأرمن وثوراتهم الداخلية المتلاحقة .

(٢) يقابل الجزية في المفهوم الاسلامي .

أراده عبد المجيد بناء على اقتراح رشيد باشا [1] . لم يتنازلو عن امتيازاتهم القيمة ، فقاوموا هذا الالغاء باصرار ونجحوا بابقاء كل شيء على ما كان .

وباستثناء الأرمن الذين يعيشون في جبال الأكراد عيشة بائسة ، فان الأرمن هم أغنى الرعايا بمن فيهم الروم . والحقيقة التي لا غبار عليها أن هؤلاء القوم يعرفون كيف يستفيدون من ثروات بلادنا .

(١) خط شريف كولخانه ، تاريخ ٢ تشرين الأول ١٨٣٩ .

الهجرة الداخلية (١٨٩٣)

لكي نعمل على اسكان الأراضي الخالية من امبراطوريتنا ، يتوجب تنظيم الهجرة بشكل مناسب . لكننا لا يمكننا القول بأن الهجرة اليهودية شكل "مناسب [١] لقد مضى عهد دخول أتباع الأديان الأجنبية الى مجتمعنا كما تدخل الشوكة في أجسادنا . ليس لنا أن نقبل في أراضينا الا من كان من أمتنا وإلا من شاركنا في معتقدنا . علينا أن نبدي اهتمامنا في تقوية العنصر التركي وأن نسعى الى زيادة المسلمين في البوسنة والهرسك وبلغاريا بالهجرة الى هذه المناطق واستيطانها .

ولن تقتصر فوائد الهجرة على زيادة القدرة الوطنية ، بل ستتعداها الى زيادة القوة الاقتصادية في امبراطوريتنا . ومن الضروري تقوية العنصر التركي في بلاد الروم والأناضول خاصة ، وصهر الأكراد وضمهم الينا . إن أكبر الأخطاء التي

---

(١) يشير إلى العرض الذي قدمه البارون روتشيلد بشأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

ارتكبها أسلافي من الحكام الأتراك هو عدم سعيهم لصهر العنصر السلافي وعثمنته ، والواقع أن هذا ليس بالأمر السهل ، في حين كان اختلاط العرق الرومي بالعرق الأرمني أمراً ميسوراً .

ولكن والحمد لله تمكنت دماؤنا من الابقاء على تفوقها .

الدستور (١٨٩٤)

(من خواطر ١٨٧٦ – ١٨٧٨)

ما الذي لا ينتظر فمن قام باعداد هذا الشيء المخيف ؟

كيف يمكنني أن أعتمد على رجال أمثال مدحت [1]

---

(١) مدحت باشا : لما استعفى محمد رشدي باشا من منصب الصدارة بسبب تقدمه في السن ووهن قواه عن مزاولة الأعمال . وجهت الصدارة إلى أحمد مدحت باشا – الملقب بأبي الدستور – وأول القائلين بالإصلاحات وقد كان تعيينه في ٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ هـ وبعد تعيينه بأربعة أيام صدر إليه فرمان سلطاني مرفق معه القانون الأساسي للدولة . ولكن مدحت باشا عزل من منصب الصدارة في ٢١ محرم سنة ١٢٩٤ – بعد تعيينه بأقل من شهرين ونفي خارج الممالك المحروسة بناء على ما ألقي في حقه من الدسائس لدى جلالة السلطان من أنه يود إرجاع السلطان مراد إلى عرش الخلافة . بدعوى أنه حافظ لقواه العقلية لا يمنعه مانع عن القيام بمهام الدولة . وعزي إليه أيضاً أنه يسعى في فصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية ، أي الخلافة الإسلامية عن السلطنة العثمانية ، بحيث لا يكون السلطان =

ورشدي ونوري ؟ ثم إن هذين الأخيرين هما صهرا عمي عبد العزيز . هؤلاء يصرون على تسميتي بصاحب الشوكة من جهة ويدعون أنهم بهذا الدستور سيكسبون الامبراطورية العثمانية منجزات حضارية ! أليس ذلك بالأمر المضحك ؟

إذا كنت في ذئاب فعليك العُواء ! وبغضّ النظر عن المحاسن والمساوىء يجب أن أفتتح مجلس المبعوثان وأعلن الدستور لكي أظهر أنني أقوم بأمر هام .

في أعقاب تشكيل سرايا الأكراد ، قامت الصحف الأوربية بتوجيه انتقادات لاذعة ، مدعية أن الأكراد بعد تشكيل هذه السرايا زادوا من تصرفاتهم اللاإنسانية ضد الأرمن ، وأعربت هذه الصحف عن خشيتها من قيام الأكراد بثورة يعلنون فيها استقلالهم .

يبدو أن الصحف تبحث عن مواضيع ، اذ تكتب عن كل شيء بغض النظر عن صحته أو كذبه ، فالمراسلون يكتبون عن أوضاع كردستان وفق وجهات نظر الأرمن ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الخروج من بيوتهم المريحة في استانبول .

= خليفة جميع المسلمين ، بل يكون سلطاناً على الأمة العثمانية .
وبعد أن تم نفيه بعد عزله إلى أوربا استقدم من هناك ثم تم القضاء عليه بالطائف في الحجاز . انظر تعليق الأمير شكيب أرسلان على تاريخ ابن خلدون .

إنه وإن كان بعض الباشوات انتقدوا تشكيل سرايا من فرسان الأكراد ، فانتقادهم نابع من الغيرة التي تملكتهم لأن هذه السرايا تتبع زميلهم زكي باشا القائد السابق للجيش الرابع في أرضروم .

واذا وقعت الحرب مع الروس فان سرايا الأكراد المدربة تدريباً جيداً يمكنها أن تقوم بخدمات جلّى ثم ان فكرة الطاعة التي يتشربونها ستفيدهم كثيراً ، أما رؤساؤهم الذين منحناهم رتباً عسكرية فانهم سيجعلونها مدار فخرهم واعتزازهم . وسيسعون الى شيء من النظام والولاء . وسيأتي اليوم الذي تنتهي فيه حداثة السرايا «الحميدية».وتصبح جيشاً له أهميته .

أعلم أنني تعرضت للانتقاد في قبول بعض أبناء رؤساء الأكراد موظفين في العاصمة ، لقد شغل الأرمن مناصب وزارية لسنين عدة ، فما الذي يضيرنا اذا قربنا الأكراد منا وهم اخواننا في الدين ؟ ثم انني أصبحت عرضة للانتقاد في حمايتي آل بدرخان (٤) ، وادعوا أنهم خطرون على الأمن . وبالطبع فكل حر فيما يفكر !

لكني أعتقد أنني مصيب في السياسة التي اتبعها حيـــال الأكراد ، وقد درس زكي باشا الأمور على الطبيعة فعرض فكرة تشكيل سرايا فرسان الأكراد فكانت هذه الفكرة أحسن طريق ، اننا نتعرض للانتقاد في كل أمر لذا ترانا متعودين على مثل هذه الانتقادات .

---

(١) رئيس قبيلة كردية اعلن العصيان في احد العهود .

المشكلة اليهودية (١٨٩٥)

لليهود قوة في أوروبا أكثر من قوتهم في الشرق ، لهذا فإن أكثر الدول الأوربية تحبذ هجرة اليهود الى فلسطين لتتخلص من العرق السامي الذي زاد كثيراً .

ولكن لدينا عدد كاف من اليهود ، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً ، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير ، وبذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم .

لن يستطيع رئيس الصهاينة «هرتزل» أن يقنعني بأفكاره ، وقد يكون قوله : « ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوى فيه اليهودي على قيادة محراثه بيده » صحيحاً في رأيه ، إنه يسعى لتأمين أرض لإخوانه اليهود . لكنه ينسى أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل .

لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين ،

بل يريدون أموراً أخرى مثل تشكيل حكومة وانتخـــاب ممثلين ، إنني أدرك أطماعهم جيداً ، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم ، وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين (١) .

---

(١) وقد حكم السلطان بسبب عدائه هذا لأماني اليهود وأطماعهم على نفسه بالخلع . وعلى سمعته وتاريخ خلافته بالتشويه والتحريف والتجريح . والذي يؤكد ذلك وثيقة تاريخية بخط السلطان عبد الحميد تبين سبب خلعه ، وهي رسالة وجهها بعد خلعه إلى شيخه في الطريقة الشاذلية الشيخ محمود أبي الشامات — شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق — وقد نشر هذه الرسالة الأستاذ « سعيد الأفغاني » الدمشقي في مجلة « العربي » الكويتية في عددها الصادر في شهر شوال ١٣٩٢ ﻫ الموافق لكانون الأول ١٩٧٢ م ضمن مقالة بعنوان « سبب خلع السلطان عبد الحميد » ونحن ننقل هنا من المقالة ما يلي: احتفظ الشيخ بهذه الرسالة سرًّا مكتوماً طوال عهد الاتحاديين ، حتى إذا زال الحكم التركي عن سورية أطلع عليها بعض خلصائه ، ثم حافظ عليها بعد وفاته أبناؤه من بعده ، إذ كانت من أنفس التحف التي يحرص عليها الحريصون . لا يطلعون عليها إلا الثقات من أهل ودّهم ، حتى إذا قدم العهد ، وظهر عليها آثار الأيام ضنوا بها على الجميع . وقد سعى بعض وجهاء دمشق من أصدقاء أبناء الشيخ حتى أقنعهم باطلاعي عليها . إذ لا يجوز كتمان أمرها الآن ، حتى لا يضيع الحق . وحتى يصحح كثير من الباحثين والعلماء خطأ ورطتهم فيه الدعايات الباطلة . فلبى الورثة الطلب مشكورين، وأعارونيها في =

= مطلع عام ١٩٧٢ م ريثما صورتها ورددتها لهم .

أما الترجمة العربية للرسالة فقد قام بها صديق لهم من أهل العلم . يتقن اللغتين العربية والتركية . وكتبها لهم بخطه الفارسي الجميل المعروف ، وهم يحتفظون بالترجمة احتفاظهم بالأصل التركي . ولا تنس ما قدمتُ من أن الرسالة موجهة من السلطان (المريد) إلى شيخه في الطريق . فلا بد إذاً من الطمأنينة على التزام الأذكار الشاذلية والتزام التقاليد في مخاطبة الشيخ . وإليك الرسالة المترجمة :

يا هو

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين . وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين . وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين .

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية ، إلى مفيض الروح والحياة ، إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات ، وأقبل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة .

بعد تقديم احترامي أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مايس من السنة الحالية ، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين .

سيدي . إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلا

ونهاراً . وأعرض أنني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة .

وبعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ :

إنني لم أتخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ما ، سوى أنني — بسبب المضايقة من رؤوساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم — اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة .

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة « فلسطين » ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً ، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً ، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي :

« إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً — فضلاً عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً — فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي ، لقد خدمت الملّة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين . لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً » .

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي ، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى (سلانيك) فقبلت بهذا التكليف الأخير .

هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة

....

العثمانية والعالم الاسلامي بهذا العار الأبدي الناشيء عن تكلفيهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة : فلسطين .. وقد كان بعد ذلك ما كان . ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال . وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام . وبه أختم رسالتي هذه .

ألثم يديكم المباركتين ، وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي بسلامي إلى جميع الاخوان والأصدقاء .

يا أستاذي المعظم . لقد أطلت عليكم التحية ، ولكن دفعني لهذه الإطالة أن تحيط سماحتكم علماً . وتحيط جماعتكم بذلك علماً أيضاً . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . في ٢٢ أيلول ١٣٢٩ هـ .

خادم المسلمين
عبد الحميد بن عبد المجيد

بورصة والحكومة المركزية

استغربت اقتراح وزيري سعيد باشا بشأن نقل مقرنا الى بورصة Bursa وجعلها عاصمة الامبراطورية ، هذا اقتراح يستحيل تطبيقه ؛ إن ماضينا السعيد يربطنا باستانبول ، فيها مساجدنا التاريخية والأمانات المقدسة . ثم إن تكاليف نقل الدوائر والموظفين إلى بورصة ستبلغ ملايين الليرات .

ومن جهة أخرى فإن وجود استانبول على برميل من البارود حقيقة واقعة ، لذا فإن اقتراح سعيد باشا يستحق الدراسة الجدية ، فإذا ما جاء الروس مرة ثانية الى مشارف استانبول فماذا سيحل بنا ؟ سيحتلون المدينة ، وهذا يعني نهاية كل شيء ، إذا أضعنا استانبول أضعنا معها الخلافة ، ستؤول الخلافة حتماً إلى العرب .

مشكلة الهدايا « البقشيش » (١٨٩٦)

عندما يكتب افرنسي أو انكليزي أو ألماني أو أي أجنبي ، عن بلادنا ، لا ينتهي قبل أن يخصص فصلاً خاصاً من كتابه لعادة الهدايا عندنا ، حتى أن أحد الافرنسيين ، ذكر في كتابه أن الهدية أعلى مستوى من السلطان ، وسمّاها « السلطان هدية » . إنهم مبالغون في كل ما قالوه . والواقع أن الغربيين لا يفهمون المعنى الكامل للهدية ، إنهم يعتبرونها لا أخلاقيـــة كالرشوة ، مع أنها حوادث نادرة ، أما « القيصر هدية » فهي أكثر انتشاراً في بلاد القياصرة منه في بلادنا . ويمكن القول إن عدم تنفيذ شيء إلا بالهدية التي عندهم ليس موجوداً عندنا ، وحقيقة الأمر أن بعض العادات التي كانت في أوربا قبل عصور خلت ، لا زالت موجودة عندنا الآن ، حيث لم تكن لدى الغرب — كما هي حالنا الآن — ميزانية رسمية ، فكان الموظفون يسعون الى تدبير معاشهم ما وسعهم أن يدبروا ، ويقال إن بعض الرهبان في الغرب لا يزالون يعيشون على هدايا الشعب المتدين . إذاً ، فلا مجال لأن يحتدّ كتاب أوربا لعادة موظفينا في قبول الهدايا . وقياس موظفينا على الموظفين

الأوربيين الذين يستدون أظهرهم على وضع مالي صريح ومنظم قياس مع الفارق . فالموظف الذي يتهم باللاأخلاقية وقلة الشرف بسبب انتظاره الهدية ، لا يمكنه أن يعيش على الراتب الذي يحصل عليه من دولتنا ، لذا فإنه يرى المبلغ الذي يعطيه له الناس مقابل عمل يؤديه لهم وكأنه حقه الطبيعي ، كما يعتبره الناس أمراً طبيعياً ؛ هذا التعود الذي بدأ منذ قرن من الزمن جعل من الهدية عرفاً ومؤسسة وطنية ، لا يمكن لأجنبي يفكر وفق ما تمليه أعراف بلاده ، أن يتفهم أطوار الموظفين في الدولة العثمانية ، إنه يجب الأخذ بعين الاعتبار وضعنا المالي المؤلم (وفقر الدولة مستمد من فقر الشعب) الذي بسببه لا نستطيع دفع الرواتب الشهرية للموظفين بشكل منتظم .

والعيال في البيت جائعون ينتظرون النجدة من الهدايا ، إنه أمر إنساني بحت يجب تفهّمه . إن أي موظف في أية أمة وضعها كوضع العثمانيين لا بد وأن يتصرف كما يتصرف موظفونا هنـــا .

ولا جرم أن عادة الهدايا تضر بالدولة ضرراً بالغاً ، لأنها تفقد بها مبلغاً ضخماً من ضرائب الدخل . إذاً ما العمل لتصحيح هذا الوضع ؟ إن كل موظف آمن بحقه في الهدية ، فلا سبيل لنا إلا التغيير الجذري في نظامنا المالي، وكشف مصادرأخرى للموارد قد يكون مفيداً . ولكن قبل كل شيء ينبغي على الدول القوية أن تعترف لنا بحق العيش بسلام واستقرار ، كيلا نصرف موارد الدولة دون جدوى للقضاء على المؤامرات التي يحيكها الأجانب .

الأحراج (١٨٩٦)

يتهموننا بالقضاء على الغابات في الأناضول ، وبعدم بذلنا أي جهد لتربية غيرها ، لنقبل التُهمَة الأولى ، بغضّ النظر عن إرسالنا طلاباً لدراسة علم الأحراج في أوربا ، وقيامنا ببعض المحاولات لتربية الأشجار . على كل حال اتخذنا قراراً بغرس أشجار في أماكن صالحة للغرس وبالمحافظة على الأحراج الموجودة وإن كانت قليلة .

لكن ادعاءهم بالقضاء على أحراج البلاد هو اتهام لا معنى له . لأننا عندما استولينا على هذه البلاد لم نجد على أرضها الأحراج ، قضى عليها اليونان القدماء والبنادقة وأهل جنوه في العصور الوسطى ، مع هذا فإن العدو الأكبر لغاباتنا على مر العصور هو الماعز الذي تعود الناس على تربيته ، فالغنم يكتفي بأكل الأوراق . أما الماعز فلا بد أن يقلع النبات من جذوره ليأكله ، وبذلك يكون سبباً في القضاء على النباتات . فإذا أردنا أن تنجح محاولاتنا في تربية الغابات من جديد فعلينا أن نقلل من تربية الماعز ونحد منها .

المشكلة الأرمنية (١٨٩٦)

حول المشكلة الأرمنية ظهرت كتابات كثيرة جداً وأقوال كثيرة مثلها ، وقد كان القضاء الدموي على ثورة الأرمن في بيازيد (١٨٧٧) ذريعة سياسيي أوربا في ضغطهم علينا ، أما مطالبتهم بإجراء إصلاحات في شؤون الأرمن فما هي إلا حجة واهية .

أصر الانكليز على إدراج مادة حول مطالب إصلاحات شؤون الأرمن في معاهدة برلين فأدرجوها ، وفيما عداها لم تطالب الدول الكبرى بأي شيء لصالح الأرمن ، إذ لم يكن هناك سبب يستوجبها . تدّعي صحيفة انكليزية أن الحكومات هي السبب في حدوث الثورات وليس الشعب ، والواقع أن هذه فكرة لا تنطبق على المشكلة الأرمنية ، لأن الأرمن تورطوا في العصيان بتحريك خارجي . إن الأرمن شعب محترس بطبيعته ومحب للملذات الدنيا . فلا بد أن تكون هناك بواعث وراء ثورتهم . كان المبشرون الانكلو أمريكان يعملون على نشر المذهب البروتستانتي في شرق امبراطوريتنا . فقاموا بأعمال

استفزازية تجاه المسلمين ، وجاء الأرمن فظنوا أنه يمكنهم القيام بنفس الدور الذي قام به أسلافهم من المبشرين في تصرفاتهم الحاقدة دون أن يلقوا جزاء ما يعملون .

ومن المضحك القول بأن اضطرابات الأرمن لم تكن مدبرة ! لقد بدأت هذه الاضطرابات بعد إنشاء المدرسة الدينية في مزريغون (١٨٦٥) فعكف متخرجو هذه المدرسة على إنشاء منظمات بقصد جمع الأرمن في أمة واحدة ، وتبين أن المنظمة الثورية الأرمنية في «أثينا» قررت إعلان العصيان في بلادنا ، ثم ظهرت منظمات « اندون ريدجوري » وبمناسبة عيد رأس سنة ١٨٢٢ ألصقت على جدران كنائس الأرمن منشورات تدعو إلى إعلان العصيان بشكل سافر. ولنسأل : أي دولة تصبر على هذه الأعمال كما صبرنا نحن ؟ .

وعلى مر السنين زاد الأرمن من استفزازاتهم ، الأمر الذي أدى إلى زيادة نقمة وغضب شعبنا فقام قومته عليهم .

جرت مذابح اليهود في روسيا ، فهل تجرأت إحدى الدول الكبرى على منع إخوانهم النصارى ؟ أمـــا إذا كان الأمر مع المسلمين فالوضع يختلف ، فقد استشاطت انكلترا غضباً وهددتنا بتبني مشكلة الأرمن ، لأن هذه المشكلة تناسبها لأنها ستؤدي إلى إحداث اضطرابات في الشرق ، وقد تأكد في برلين مرة أخرى أن حكومتنا كانت عاجزة عن القيام بأي شيء لمنع النقمة الشعبية العارمة التي أسفرت عنها مذابـــح الأرمن ، ونفس الشعور كان لدى الألمان تجاه البولونيين ،

إلا أن أمل الأرمن في إنشاء دولة مستقلة لا يعدو كونه حلماً من أحلام اليقظة ، إنهم منقسمون إلى أرثوذكس وبروتستانت وكاثوليك ، والصراع بين هذه المذاهب لم يهدأ يوماً ، فكيف يمكنهم أن يؤسسوا دولة مستقلة ؟ ثم إن مليوناً من الأرمن تابعون لروسيا ومليونين لإيران ومليوناً ونصف المليون للدولة العثمانية ، وأخيراً فإن التاريخ يشهد أن صفات الأرمن لا تخولهم تأسيس (١) دولة بمفردهم وإبقائها على وجه الأرض .

---

(١) أساس فتنة الأرمن : أن الأرمن كانت لهم في الأعصر القديمة دولة ، وكان لهم استقلال ، وكانت مملكتهم واقعة في شرقي الأناضول ـ بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسية ـ ولما استولى الأتراك السلاجقة على تلك البلاد ، رحل قسم منهم إلى غرب الأناضول ، وأصبح الأرمن في الشرق والغرب لا يشكلون أكثرية عددية بالنسبة إلى السكان المسلمين .

فلما ظهر ضعف السلطنة العثمانية ، صار الأرمن يرفعون رؤوسهم وينتهزون الفرص ليطالبوا بتجديد ملكهم القديم ، وزاد هذا الأمر شباب الأرمن العائدون من الدراسة في أوربا ، فقد كانوا يعودون متشبعين بروح الانفصال عن الدولة ..

وعندما حاولت الدولة إغلاق بعض المدارس الأرمنية التي تدعو إلى الثورة ، ثار الأرمن وجاؤوا إلى العاصمة ، وطلبوا من بطريركهم أن يراجع السلطان ، فلما رأوا منه فتوراً حاولوا قتله فهرب ، وفي أثناء ذلك نجمت بوادر الثورة في جبل يقال له « جبل ساسون » من سنجق موش ، في ولاية تبلس ، وامتنع الأرمن هناك عن دفع الضرائب ، فأرسلت الدولة جيشاً لتأديبهم ، وعندها قامت قيامة الصحافة الأوربية ، وخاصة عندما وصلتها أخبار تأديب الأرمن . (انظر كتاب تعليقات الأمير شكيب أرسلان على تاريخ ابن خلدون)

الأتراك الشباب (١٨٩٧)

علمت أن الأتراك الشباب في جنيف عقدوا مؤتمراً بكل معنى الكلمة ، وبالرغم من أن اجتماعاتهم كانت سرية فـان استخباراتي حصّلت على أسماء سبعة عشر رجلاً منهم . ومن دواعي الأسف أن هؤلاء الشباب منقادون لما يدبره بعض المتآمرين من الرجال المغرورين . إنهم يقدمون شعارات براقة كتوعية الأمة وترقيتها ، بغية القضاءعلى النظام القائم وهدم ما بناه الأجداد طيلة قرون خلت ، وفي الحقيقة إنهم يريدون الإطاحة برجال دولتي المجربين وتولي زمام الأمور بأنفسهم ، إنهم عصابة منافقة دنيئة تنكرت لدينها ووطنها ، وحالفت الصليبية العدوة في القضاء على أبناء جلدتنا وإخوتنا في الإسلام[١] .

---

(١) وقد اكتشف بعض هؤلاء الذين اشتركوا في المؤامرة أنهم كانوا ضحايا الخديعة الماسونية اليهودية .

فهذا أنور باشا الرجل الذي قام بالدور الرئيسي في الانقلاب على الخلافة سنة ١٩٠٨ م ، والذي تسبب في تدهور الدولة العثمانية ، يقول في حديث له مع « جمال باشا » إذ كانا يحللان أسباب الانحدار الذي أصاب الدولة التركية : « أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا ؟ وبعد تحسر عميق قال : « نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصهيونية .. » انظر كتاب «مكائد يهودية عبر التاريخ» ص ٢٧٩ .

الأكراد والأرمن

لا مجال لإنكار أن الأرمن في ولاياتنا الشرقية محقون في شكاواهم ، ولكن لا بد لنا أن نشير الى مبالغتهم فيها ، وكأنهم يتباكون من ألم لم يحسوا به . إنهم أمة جبانة . تتدلل كالنساء ، تحتمي بالدول الكبرى وتصرخ لأتفه الأسباب . أما الأكراد فهم على النقيض من ذلك . أقوياء جبابرة ، غلاظ شداد ، رعاة . يعيشون في هذه الولايات منذ أقدم العصور . لذا فهم ينظرون الى الأرمن نظرتهم الى الأجانب : فالأكراد هنا هم السادة والأرمن عبيد .

إن الوضع في هذه الولايات متأزم . على ممثلي الدول الكبرى أن يدركوا الصعوبات التي تعترض مشاريع إصلاحاتهم . لكن هيهات ! إنهم يقيسون الأمور وفق معطيات أوربية ، وهل يعلم الأوربيون بحاجات مجتمع على مستوى بسيط من الحضارة ؟ وهل يعرفون مبلغ فقر البلاد . وأن أي نقص يطرأ على المحاصيل سيؤدي إلى المجاعة . نحن سعداء إذا استطعنا تأمين حاجات هذا المجتمع الغذائية . أما المدارس والمحاكم ، أما

المؤسسات الأخرى الهامة فتأتي أهميتها هنا في مرتبة لاحقة .

إن التطور السريع في مثل هذه الظروف الاقتصادية أمر مستحيل ، وإصلاح خراب بدأ منذ قرن من الزمان مسألة صعبة .

هل الأوضاع وراء الحدود في روسيا أحسن من أوضاعنا ؟ وهل الأرمن هناك في تحرك كما يتحركون في بلادنا ؟

الأرمن والتجارة

تبدي الأوساط التجارية الأوربية قلقاً شديداً على المشكلة الأرمنية وتعطيها أهمية أكثر مما تستحق . إن من الخطأ الفادح أن تمتنع الشركات الأوربية عن تقديم القروض التجارية لرجال الأعمال عندنا ، والواقع أنه ليس هنا ما يستوجب الفزع . صحيح أن تجارة الجملة كانت بيد الأرمن ، وأن هؤلاء بسبب الأحداث الأخيرة غادروا البلاد الى انكلترا أو أمريكا ، ولكن هل أصيبت استانبول بالفقر ؟ من كان يستهلك بضائع الأرمن حتى الآن ؟ ألم يكن شعبنا هو الذي يدفع المال اليهم مقابل تلك البضائع ؟ مصادر الغنى الذي بلغه الأرمن ما زالت موجودة لم تنضب . ولا بد أن يأتي أناس ليملؤوا فراغ من هاجر وليستفيدوا من تلك المصادر .

السفير الألماني والمشكلة الأرمنية

يقال إن سفير ألمانيا البارون « دو ساورمايلسيكين » do Saurmayelsekin أفضى الى صحفي في برلين ببيانات تفصيلية حول حوادث الأرمن . فقام الصحفي فكتب تعليقاً مطولاً في هذا الموضوع . إذا كان الكلام صحيحاً في نسبته إلى السفير فنحن محقون في أن نعلن امتعاضنا منه [١] . لكني لا أعطي لنسبته إليه أي احتمال ، إنه يتهمنا فيه بالقضاء على الأرمن ويحمل البلاد طولاً وعرضاً جريرة حفنة من المذنبين ، ويعلن على الملأ أننا على شفا أزمة اقتصادية خطيرة جداً . وأننا آسيويون لسنا أكْفَاء للقيام بالإصلاحات ، ولن نكون في عداد الأوربيين يوماً [٢] ، ويهذي بأمور أخرى كثيرة .

---

(١) استدعي السفير المذكور إلى بلاده في شهر تشرين الثاني من السنة نفسها .

(٢) وهذا الكلام ينطلق من نظرية استعمارية في تفسير نشوء الحضارة على أساس عنصري ، وأن الحضارة حكر على الجنس الآري . وأما شعوب آسيا وغيرها من دول الشرق فهي عالة على الغرب ، ولا يمكن أن توجد حضارة ! ! .

وما دام السفير الألماني أجاز لنفسه أن يتكلم في مثل هذه القضية الخطيرة . فإننا نقول : حسناً ، ولكن كان عليه أن يمتنع عن ذكر اجتماعه الخاص بي ، وتقدمه بنصائح معينة . فهذا تصرف غيرُ سوي في قاموس السياسة ومغاير للتقاليد المتبعة في هذا المجال .

ومجمل القول : إن المشكلة الأرمنية هي من صميم شؤوننا الداخلية . وإن قيام هذا الديبلوماسي بالكشف عن أفكاره الشخصية للرأي العام دون أمر من حكومته هو تدبير سيء على أقل تقدير .

الإسراف والبيروقراطية (١٨٩٧)

صدرت ميزانية الدولة لعام ١٣١٩ رومية . إلا أن الوصول الى المبتغى بهذه الميزانية يحتاج الى جهد جهيد . فعدد درجات الوظائف المدنية كبير جداً . كما أن الرتب العسكرية والأوسمة والنياشين متنوعة بحيث يصعب التمييز بينها . مع ذلك فارتداء بعض نظرائي سترة سوداء بسيطة حتى في أضخم المراسم أمر يسرني جداً . هؤلاء يتميزون عن غيرهم بالمعرفة واتباع الحق . إن ديننا يأمرنا بمطلق المساواة . فعلينا أن نكون بسطاء في مأكلنا وملبسنا [1] . وعدم ميل الباشوات الى البساطة في معيشتهم أمر يدعو للأسف . لا أريد أن أمد يدي الى وكر الدبابير ولكن الحق يقال ان قبض كبار الموظفين تلك الرواتب

---

(١) أدخل السلطان بعض التعديلات على ميزانية القصر منذ الأيام الأولى من خلافته أدت إلى اقتصاد كميات ضخمة من الأطعمة كانت تذهب هدراً . وكان في ملبسه يميل إلى البساطة . ولذلك اتهمه خصومه بالبخل .
انظر كتاب عصر السلطان عبد الحميد ص ٦٩ .

الضخمة شيء مستغرب . هناك في المناصب الحكومية أربعون مشيراً . وستون وزيراً . وثلاثة عشر ناظراً ومائة وثمانون موظفاً من الدرجة الممتازة وثلاثمائة وتسعون من الدرجة الأولى ، وواحد وعشرون مرافقاً برتبة باشا . ومائة وخمسة وعشرون مرافقاً فخرياً وواحد وعشرون مرافقاً فعلياً . إنه عدد ضخم جداً (١) . إن هذا الوضع هو النتيجة الحتمية للتودد والنفعية . ومن الطبيعي أن الرجوع الى بساطة العهود السالفة أمر صعب المنـــال .

أما وضع صغار الموظفين فسيء جداً . وبالرغم من أنني أمرت أكثر من مرة بدفع رواتبهم بانتظام . فإن الشكاوى ما زالت تردني . ليتني قضيت على هذا السرطان الخبيث .

---

(١) تقدر الرواتب السنوية لكبار الموظفين على النحو التالي :
٣٩٠٠٠٠ فرنك فرنسي للوزير . ٤١٤٠٠٠ فرنك لأمير البحرية
١٢٠٠٠٠ فرنك لناظر المالية . ١٣٨٠٠٠ لناظر المعادن
٣٣٠٠٠٠ للنظراء الآخرين .

فؤاد باشا (١٨٩٨)

لو لم أعلم أن فؤاد باشا يلقب بـ (المجنون) لقلت إنه جريء جداً إنه جريء لدرجة وصفني في مذكرته التي بلغت عشر صفحات بالضعف والسلبيات. وأضاف: « إن الإصلاحات في تركيا لا تتحقق من تلقاء نفسها ، علينا أن نتقدم صوب كل جديد ، ونعمل ليل نهار كيلا نتخلف عن مستوى الكفار » . ويشكو أيضاً من تخلف الجيش . ولعل تفكيره هذا نابع من نظرته الحاسدة تجاه الباشوات الآخرين . ألا يشترك الجميع في القضاء على جيشنا ؟ ألم يقل الجنرال « فون درغوت » Von derGotte إن جيشنا يحتل المرتبة الأولى بين الجيوش ؟ وأن ليس هناك من يتفوق على جنودنا ؟ .

يدعي فؤاد باشا أننا تخلفنا عن باقي الأمم في المجال الفكري أيضاً ولعل هذا الرجل قد دخل في نفسه بعض أوصاف الكفار ، وإلا فكيف ينسى أن الصراع الفكري لا يؤدي بالانسانية الى السعادة ؟ .

علينا أن نترك الحضارة الغربية لنصاراها ، وألاّ نحسدهم على هذه الحضارة .

يظهر أن فؤاد باشا أصيب بمرض هذه الحضارة ، فاقتضى الأمر إبعاده كيلا ينقل العدوى إلى غيره .

انحطاط العثمانيين

مرة ثانية بدأ فؤاد باشا بالتباكي على أن الشعب التركي انحط وأن الأمبراطورية ضعفت ، ثم تجاوز حده فاعتبرني مسؤولاً عن انحطاط البلاد . لعل حضرة الباشا ينسى أنني على رأس دولة ينفرط عقدها في اللحظة التي تضعف فيها إدارتها المركزية .

لو قام كل واحد بما أوكل إليه من مهام لأمكننا النهوض السريع لكن الارتخاء والكسل وعدم الاكتراث قد عم كل كل مكان ؛ لم تعد الطبقة المثقفة تهتم بأمر ، ولم يعد الموظفون والعسكريون يثقون حتى بأنفسهم ، ليس هناك من يريد أن يعمل ولا أن يعلم [1] . لم يستطع الخبراء الأوربيون الذين جئنا بهم أن يعملوا شيئاً حيال هذه الظواهر ، أينما حلوا وجدوا هذه التصرفات اللامسؤولة التي حطت من عزيمتهم فأخلدوا أخيراً إلى الدعة والراحة كباقي الناس . إذاً فما قيمة نداء فؤاد باشا للشعب بأن يحب وطنه في مثل هذه الظروف ؟ لو عاش هذا

(١) ما أشبه اليوم بالبارحة في حياة المسلمين في هذه الأيام .

الباشا في إحدى الدول الأوربية لعله وجد نفسه في مكان أحسن ولاستطاع القيام بعمل مثمر أو تمكن من آن يقود حركات كبرى .

القوة الوحيدة التي ستجعلنا واقفين على أقدامنا هي الاسلام . لسنا كما قال فؤاد باشا أمة تنازع ، إننا أمة قوية بشرط أن نكون مخلصين لهذا الدين العظيم .

إيفاد الضباط الى البلاد الأجنبية (١٨٩٨)

أثنى صديقي امبراطور ألمانيا على ضباطنا الذين يتلقون العلوم العسكرية في بلاده بأنهم في تقدم مستمر . وأغلب ظني أن الامبراطور مخطىء في حكمه هذا . لأن تقرير سفيرنا في برلين يفيد أن القليل القليل من هؤلاء الضباط يركز اهتمامه على الدراسة ، وتفيد المصادر الوثيقة أن القادة العسكريين البروسيين يمدحون ضباطنا لا لأنهم يستحقون المديح بل يغضون النظر عن كثير من سقطاتهم كي يكونوا صالحين لهذا المديح .

إن تلقي أولاد الباشوات العلوم العسكرية في بروسيا يكلفنا كثيراً ، لكنه يولد انطباعاً حسناً في الخارج . فعلى هذا النحو نبرهن على أننا لم نبخل بشيء في سبيل إبقاء جيشنا في المستوى المطلوب . ونزكي من تفاخر أصدقائنا الألمان .

لكن أكثر شبابنا الموفدين إلى ألمانيا – ويا للأسف – يفقدون في أنفسهم فضيلة الاعتدال والبساطة اللتين يتميز بهما العثمانيون . وما يتعلمونه هناك عبارة عن شرب الخمور ، وعادات منافية للخلق وما شابهها . ثم يعودون وهم منتفخون

بالعظمة والكبرياء . ينظرون الى زملائهم وإلى الباشوات المسنين المجربين نظرة استخفاف . ويسخرون من أعرافنا وعاداتنا . إن عثمان باشا [1] لم يتعلم في مدارس بروسيا لكنه كان قائداً فذاً ! وما الفائدة من علوم التعبئة النظرية التي يتعلمونها من الكتب ؟ إن أهم شيء في الحرب هو الجرأة والصمود مع رجاحة العقل ، وطبعاً وقبل كل شيء الإيمان الخالص بالله . هذه هي أوصاف الجندي المثالي .

---

(١) قائد معركة بلافنا الشهيرة وقد لقب بالغازي حاصره الروس ٤٢ يوماً بعد أن أوقف زحفهم وردهم على أعقابهم عدة مرات ولكنه وقع في النهاية أسيراً بعد نفاذ المؤن والذخائر من جيشه . وبعد عقد الصلح مع الروس عاد عثمان باشا إلى استانبول فاستقبل بحفاوة عظيمة من الشعب والحكومة ، ولما وصل إلى قصر يلدز احتضنه عبد الحميد وأهداه سيفاً مرصعاً بالجواهر ثم نصبه مشيراً للمابين ، وبقي في هذا المنصب حتى توفي .
انظر عصر السلطان عبد الحميد ص ٣٧٢ — ٣٧٥ .

قانون ولاية العهد (١٨٩٨)

فكرت كثيراً في أمر تغيير المتعارف عليه في وراثة العرش وجعله مشابهاً لما عند أمراء أوربا ، إن عادة وراثة كبير العائلة للعهد التي ينص عليها القانون التركي كانت شؤماً على عائلتنا ، والصفحات الدامية في تاريخنا تثبت ذلك ، والحقيقة أن كون الحكم بيد كبير العائلة ، يؤمّنُ تقاسم العائلة لكل شيء بالتساوي ، لا يتضرر في ذلك أحد : أؤيد هذا القانون من هذه الناحية ، لكني مقتنع أن تولي كبير العائلة للحكم من الأمور غير الملائمة بالنسبة لعائلة تحكم ، إن ابن السلطان هو الذي يجب أن يكون الوريث وليس كبير العائلة ، فالمنافسة بين الإخوة وأولادهم أدت إلى تذكية نار الضغينة بين أفراد العائلة أنفسهم . ومؤامرات بعض الباشوات الطامعين ولدت كثيراً من المآسي . وكم كنت تعيس الحظ عندما أبعدوني عن الدنيا ومنعوني من تعلم أي شيء في شبابي خشية أن أكون يوماً منافساً خطيراً لولاية العهد .

وفي سبيل تغيير قانون ولاية العهد ، تقدمت ثلاث مرات

الى شيخ الاسلام أطلب منه الموافقة . وقد أبدى الشيخ تفهماً . لكنه لم يشأ أن يتحمل مسؤولية النتائج التي يمكن أن تترتب على هذا التغيير . هناك عدة احتمالات قد تنشأ . لكني لم أستطع أن أقرر كيفية التصرف في مواجهه هذه الاحتمالات . ولا بد أن يأتي يوم أتمكن فيه من التحرك في هذا الموضوع .

بعد الحرب التّركية الروسية (١٨٩٨)

عندما اعتليت كرسي الحكم كان وضع الامبراطورية سيئاً ، وزادت الحرب الروسية من تدهور الوضع . فقد اختلط الحابل بالنابل وتوترت الأعصاب . ولم يعد أحد يجد مبتغاه ، ففي هذه الأيام وجدت نفسي وحيداً انْفَضّ الناس من حولي وانتهت الحرب فازداد الأمر سوءاً .

وفي سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه تمكنت بصعوبة من الحصول على حق إعادة النظر في اتفاقية « آياستفانوس » [١]

---

(١) نصت معاهدة (آياستفانوس) المؤلفة من تسع وعشرين مادة على استقلال كلٍ من رومانيا والصرب والجبل الأسود مع توسيع مساحاتها ، وعلى إعطاء بلغاريا استقلالاً إدارياً مع اعترافها بسيادة السلطان ، وجعلت حدودها تمتد من البحر الأسود إلى بحر (إيجه) فتشتمل علاوة على بلغاريا إقليم الروم إيلي ومعظم مكدونيا . فلم يبق للعثمانيين في أوربا سوى شقة ضيقة تمتد في شبه جزيرة البلقان ، وتنازلت الدولة لروسيا بموجب هذه المعاهدة عن أردها وقارص وباطوم وبايزيد في آسيا ، كما استعادت روسيا الجزء الذي تنازلت=

وذلك في اجتماع برلين . وقد أظهرت هذه الحرب جهل قادتنا وخيانة كثير من كبار موظفينا ، وأدت هزيمتنا في الحرب وضياع قسم من أراضي امبراطوريتنا الى انحطاط روحي ، ولكن ورغم كل شيء ، ليس للعثمانيين أن تنحط فيهم عقيدة الاستسلام للقدر الى هذا الحد . لقد أصبح من المستحيل إنقاذ الأمة من القنوط الذي وقعت فيه ، فلا أحد يرضى أن يضحي براحته ، ولا أن يفقد شيئاً من رغد عيشه .

وكالعادة يظن الجميع أن السلطان ومستشاريه يمكنهم القيام بما يجب القيام به .

بعد هذه الحرب المرعبة ، بذلت ما في وسعي لرفع معنويات رجال الدولة وإنعاش الأمة ، ودعوتها للقيام بالمهام الملقاة على عاتقها كي تتخلص من المأزق الذي وقعت فيه .

= عنه في بساربيا في معاهدة باريس عام ١٨٥٦ وأعطيت رومانيا لقاء هذا الجزء إقليم (دوبريجة) .

جزيرة كريت

قبلت على مضض تعيين الأمير اليوناني جورج والياً على جزيرة كريت [1] ولم يكن بوسعي سوى القبول ، لأن روسيا وانكلترا اتفقتا على ترشيح هذا الأمير في هذا المنصب .

---

(١) كريت (اقريطش) جزيرة كبيرة في البحر الأبيض المتوسط كانت تابعة للدولة العثمانية ، وقد أعطتها الدولة دستوراً خاصاً . وعينت لها والياً مدة ولايته خمس سنوات . فإن كان مسلماً كان معاونه نصرانياً وبالعكس ، ولها مجلس تشريعي . ثم إن النصارى اختلفوا مع الدولة من أجل الموازنة المالية لإدارة الجزيرة ، وفي سنة ١٨٨٧ م أرسل السلطان عبد الحميد المشير شاكر باشا لإصلاح الحال . فاستعمل القوة لأن النصارى حرجوا عن الطاعة وأبوا دفع الضرائب واعتدوا على المسلمين ، فشتت شاكر باشا شمل عصابات النصارى فسكنوا ، فأرسلت انكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا أساطيلها فأنزلت عساكر في الجزيرة سنة ١٨٩٧ ، وأرسلت اليونان أسطولها فأنزل عساكر في الجزيرة وألحقت الجزيرة باليونان . فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على اليونان ، وزحف المشير أدهم باشا بمائة وخمسين ألف =

عندما تكون المصالح السياسية الروسية على كفة الميزان ، يفترض أن يترك الامبراطور ميوله الشخصية جانباً ، ولكن يبدو أن مصالح روسيا السياسية اتفقت مع مصالح الرجل الذي أنقذ حياة الأمبراطور . أما فرنسا فليس لها في هذا المجال أي اتجاه معين . لكنها تسعى هي أيضاً لمسايرة الروس . أما النمسا وايطاليا فهما محايدتان . وأما انكلترا فانها تكتشف يوماً

= جندي على اليونان فهزم الجيش اليوناني . فأبرق قيصر روسيا إلى السلطان عبد الحميد يرجوه العفو عن اليونان والتوقف عن الحرب فلم يسع السلطان إلا إجابة رجاء القيصر وأعاد الجيش العثماني وانعقد الصلح . ودفعت اليونان غرامة حربية . وصححت الحدود فاسترجعت الدولة من اليونان قريتين من إقليم تساليا .

وأما نصارى كريت فإنهم طردوا المسلمين من جميع القرى واقتلعوا أشجارهم ودمروا بيوتهم . فالتجأ المسلمون إلى المدن وهجموا على حارة النصارى في قندية فأحرقوها وبطشوا بهم ، وحصل مثل ذلك في خانية عاصمة الجزيرة ، فأنذرت الدول النصرانية الدولة العثمانية بأن تخرج عساكرها من الجزيرة أو تعلن هي استقلالها . فأتت بالبرنس جورج ابن ملك اليونان وجعلته والياً للجزيرة .

وبعد انتهاء الحرب البلقانية في زمن السلطان محمد رشاد ضمت الجزيرة إلى اليونان . فهاجر من مسلمي كريت عدد كبير إلى بلاد الدولة العثمانية . ومنهم جماعات وصلوا إلى دمشق وسكنوا جبل قاسيون وحيهم يسمى إلى الآن بحي المهاجرين .

انظر كتاب تعليقات الأمير شكيب على تاريخ ابن خلدون .

عد يوم عن أطماعها في السواحل الجنوبية . وستطالب قريباً بهذه السواحل كمكافأة لها على موقفها الحالي .

إن انتصارنا في تسيليا ضمن لنا السيطرة على جزيرة كريت في الوقت الراهن . لكن استانبول تبعد عنها كثيراً في حين تقع أثينا على مقربة منها ، والاضطرابات التي تحدث فيها مصدرها أثينا . وحدوث اضطرابات جديدة أمر محتم ، فاذا نجحوا في الانضمام الى اليونان فلا بد أن يأتي يوم يترحمون فيه على حكمنا . هذه الجزيرة الجميلة التي كلفتنا دماء وشهداء كثيرين ستقتطع منا في نهاية المطاف .

لو أننا وضعنا مشروعي القديم (١٨٨٠) قيد التنفيذ لكان أصلح لنا . فكرتُ في حينه في التنازل عن كريت لليونانيين ، مقابل السيطرة التامة على تسيليا بعد تعديل جديد على الحدود . أما فرنسا فلم توافق ، وأما انكلترا فقد أعلنت استنكارها . لكن هاتين الدولتين قامتا بالضغط علينا بعد عدة سنوات لإجراء التعديل لغير صالحنا .

خط حديد بغداد (١٨٩٨)

الكتاب الذي ألفه البارون فون أوبنهايم حول الهلال الخصيب يوضح بشكل جيد الأهمية الاقتصادية لوادي دجلة والفرات . هذا الكتاب الذي قرأت خلاصته ، تؤيده التقارير التي أرسلها ولاتنا حول مستقبل هذه المنطقة .

لقد آن الأوان لأن نفكر جدياً في أمر إنشاء خط حديد بغداد ، يجب علينا أن نبدأ بالعمل رغم أنف الإنكليز الذين يبذلون ما في وسعهم للحيلولة دون تنفيذ مشاريعنا ، فبفضل خط حديد بغداد سيعود طريق أوربا — الهند الى سابق نشاطه ، فإذا أوصلنا هذا الخط بسوريا وبيروت والاسكندرية وحيفا نكون قد أوجدنا طريقاً تجارياً جديداً . ولن يقتصر هذا الطريق على در الفوائد الاقتصادية العظيمة لامبراطوريتنا . بل سيتعداها إلى الناحية العسكرية فيدعم قوة جيشنا هناك .

وإذا تمكنا من إنشاء شبكة ري مدروسة ، للاستفادة من النهرين التوأمين : دجلة والفرات ، لجعلنا هذه الأراضي القاحلة جنة من جنات الدنيا كما كانت قبل آلاف السنين . وأعتقد أننا

اذا وفقنا الى ربط خط حديد بغداد بخط حديد الحجاز نكون قد أنجزنا عملاً هاماً جداً .

إننا بعون الله سنجعل هذا المشروع حقيقة واقعة بأموال الألمان وخبراتهم . والمهم ألاّ تنجرف الديبلوماسية الألمانية تحت تأثير سياسة الإنكليز .

آغا الحريم (١٨٩٩)

فاجأتني طلبات بعض الأوربيين القيام بالخدمة في قسم الحريم من امبراطوريتنا . فقد تقدم في أسبوع واحد فقط ثلاثة رجال ، أحدهم موسيقي من باريس والثاني صيدلي ألماني أما الثالث فتاجر سكسوني .

إن تضحية هؤلاء بجزء من عقيدتهم ثم بعضو من أجسادهم إن دلت على شيء فإنما تدل على الحالة النفسية السيئة التي هم فيها . لا شك أنهم لا يعرفون الحياة الأليمة التي يحياها آغا الحريم ، ورغبتي القديمة في القضاء على هذه العادة البربرية .

ينبغي الاشفاق على هؤلاء التعساء الذين قذفتهم أطماع ذويهم في هذا الشقاء وهم في عمر الورود . لقد أخبرني طبيبي « ماوروكيني » Mavrogengnin أن ٧٠٪ من الذين تجرى لهم العملية الجراحية من هؤلاء يموتون .

أعتقد أن الرجال المسنين العاجزين عن القدرة الجنسية هم خير من يقوم بخدمة الحريم .

إلغاء الامتيازات

أردنا إلغاء الامتيازات في قبرص فقامت الصحف الأوربية بالصياح والعويل على غرار الصحف اليونانية . إنهم يريدون إظهارنا بمظهر المعتدي على حقوق الآخرين . في حين يدرك المحايد جيداً أن هذه الامتيازات هي التي هضمت حقوقنا وألحقت الحيف بنا . من الطبيعي أن يَعْمَد الروم إلى إحداث البلبلة في سبيل المحافظة على الامتيازات التي حققوها . فإذا فقدوا هذه الامتيازات فلن يستطيعوا بعد ذلك الدعوة إلى القومية الهيلينية . أدعو الله عز وجل أن يجعل هدم هذه الامتيازات على أيدينا .

إن سبب دفاع بعض الدول الكبرى عن الروم نابع من خشيتهم على امتيازاتهم من أن نسحبها يوماً . إن فرض وصاية الأجانب علينا أمر مناف لكرامتنا . تخلص اليابانيون من هذا الداء قبل سنوات عدة . أما إذا كان الأمر معنا نحن العثمانيين ، فليس لنا هذا الحق . إن تطرف الدول الكبرى في الإجحاف بحقوقنا قد تجاوز جميع الحدود والمقاييس .

مدحت وتخرصاته (١٨٩٩)
(من مذكرات عام ١٨٧٧)

كلما تذكرت الحالة السيئة التي كانت تلف الحكومة عندما اعتليت كرسي الحكم ارتعدت فرائصي .

فناظر الحربية رديف باشا [١] . كان رجلاً حالك الظلام . لم يكن على علم بشيء عندما انفجرت الحرب مع الروس . كان الكولونيل « باكر » Baker (الضابط الذي عمل على إصلاح الجيش التركي) عسكرياً كفؤاً حسن النية . لكنه ماذا يستطيع أن يفعل إذا كان على رأس الجيش رجل مثل رديف ؟ أما مدحت[٢] فكان يعمل في الخفاء ليغتالني رجاله ويتخلص مني .

---

(١) رديف باشا : رئيس مجلس الشورى العسكري . وأحد المنفذين لخلع السلطان عبد العزيز ، اشتهر بذكائه ، وأثبت كفاءته في جميع الوظائف التي تقلدها . بدأت شهرته منذ افتتاحه اليمن . انظر عصر السلطان عبد الحميد ص ٦٤ .

(٢) المقصود به أحمد مدحت باشا الملقب بأبي الدستور وقد سبق التعريف به .

إني مدين بحياتي ليَقَظة رجالي المخلصين . وما جرى لي كاف لأن يهز من يملك أقوى الأعصاب . إذاً فلا عجب بعد هذه الأمور أن أكون محتاطاً .

أعرف جيداً أن كثيراً من الناس يريدون استغلال حالتي العصبية وأعرف أن رجال المباحث والمخبرين أناس سَفلة عديمو الشرف . وأن ديننا يلعن أهل الزور . إلا أنه لو لم يكن لي هذا الجهاز الكبير من المخابرات ، لكان مستحيلاً علي حماية نفسي من الأخطار المحدقة بي من كل جانب .

أليس الحكام والأباطرة الآخرون يتصرفون كما أتصرف ؟ .

الفارماسون في تركيـــا

للفارماسون [1] عندنا ، تصرفات مزعجة ، يحاولون بحماس زائد نشر أفكار تجددية لا يفهمها الناس ؛ إذ الأغلبية عندنا لا تأبه بالأفكار التحررية . والذين يميلون الى التعاون مع هؤلاء حفنة من الناس بقيت خارج البلاد ردحـــاً من الزمن فانقطعت عن جذورها ، وتثقفت ثقافة أوربية سطحية براقة ، هذا الصنف من الناس عندما يعود إلى بلده ، يجهل ما ينتظره منه شعبه ، فيعمل على نشر « الأفكار الغربية » « في سبيل جعل تركيا دولة حضارية » . إنهم عمي في بصائرهم .

الشيء الوحيد الذي استطاعوا تحقيقه هو بذر الشقاق والعصيان في البلاد وصفوف الجيش ، دون أن يدروا أنهم يعملون لحساب إنكلترا التي تذرعت بنشر الأفكار التحررية في إمبراطوريتنا ، بغية إضعاف قدراتنا . وأشد مـــا يؤلمني أن يقوم هؤلاء المضللون من الأتراك بالتعاون مع اليونانيين والبلغار

---

(١) أي الماسونيون أو « العشيرة الحرة » .

في سبيل إزاحة «المستبد» [1] عن الحكم .

ربِّ إنهم مساكين ضعاف العقول لا يفقهون .

التجارة (١٨٩٩)

حصلنا على قرض جديد بشروط جيدة . ولكن هل سنستفيد منه ؟ وإلى أي حد سنجني فوائده ؟ الخزينة على ما هي عليه من ضعف الإمكانات . استقدمنا مراراً خبراء أجانب فلم نستفد منهم شيئاً ، فالجيش واللوازم « القرطاسية » يبتلعان كل موارد الدولة .

ليس من أحد يفكر في دفع عجلة التجارة والصناعة الى الأمام . إن تجارة الروم والأرمن لن تكسب الشرف لبلادنا ولن ترقيها . أما السادة عندنا فليست عندهم أية رغبة في التجارة أبـــداً .

---

(١) أصبح هذا لقب السلطان عبد الحميد عند الماسونيين والأتراك الأحرار .

الأرناؤوط (١٨٩٩)

عُرض في مجلس النظراء [1] اقتراح يقضي باتخاذ إجراءات قاسية ضد أتباعنا الأرناؤوط لفتحهم النار على إحدى وحداتنا العسكرية . لكني أعتقد أن هذا الهجوم لم يكن دونما سبب . ويمكن أن يكون سبب ذلك هو قيام بعض عساكرنا بتفريغ بعض المخازن النائية من المؤن والمهمات الأمر الذي أدى بالأهالي إلى التعرض لهم .

إن استعمال القسوة مع الأرناؤوط أمر لا أحبذه مطلقاً . هؤلاء قوم مفطورون على الحرية . جربناهم وعرفنا أن ظلمهم لن يؤدي إلا إلى الثورة . تصرف بعض ولاتنا تصرفاً خشناً فسببوا صراعاً لا طائل منه . هذه البلاد التي كلفتنا كثيراً من الأموال والأنفس . لن تساس بالشدة والحزم . بل بالمعروف والتدبير الحسن .

إن السواد الأعظم من الأرناؤوط (باستثناء قلة قليلة من

(١) النظراء : أي الوزراء .

العائلات النصرانية) إخوان لنا مسلمون ، نُسْنِدُ ظهورنا اليهم ، فهم جنودنا المخلصون ، برز منهم رجال دولة وقادة أفذاذ ، أليس الذين حولي الآن هم من الأرناؤوط [1] ؟ .

فالحقيقة التي لا غبار عليها انهم قوم عزيزو النفس يكرهون أن تحد حرياتهم . وإذا أخذنا بعين الاعتبار جيرانهم الذين يسعون للوقيعة ، فعلينا أن نلتمس الأعذار لكثير من تصرفاتهم .

لو قابلنا كل رصاصة انطلقت في ألبانيا برصاصة مثلها ، لما عرفنا الى أي هاوية كانت ستؤدي بنا هذه المقابلة .

---

(١) كان حرس السلطان عبد الحميد الذين يحيطون به في قصر يلدز من الأرناؤوط .

خط حديد الأناضول (١٩٠٠)

إن خط حديد الأناضول هو خير رد على من يتهمني بالرجعية ومعاداة الثورة والسعي لمنع تسربها الى البلاد .

بعد أن تخلصنا من بعض الآثار المدمرة التي خلفتها الحرب الروسية ، بذلت ما في وسعي للعمل على سرعة مد خط حديد الأناضول ، والهدف من هذا الخط ، هو ربط شرق البحر المتوسط وبغداد بالأناضول والوصول الى خليج البصرة . وقد تم إنجاز هذا المشروع بنجاح بفضل المساعدة الألمانية . فالأرباح التي تجنيها الولايات الواقعة على طول هذا الخط تتزايد كل عام . والحبوب التي كانت تصاب بالعفن وهي في أرضها تلقى الآن سوقاً رائجة ومعادننا تعرض في الأسواق العالمية ، ومعدن الكروم الذي يعرضه راغب بك ، أحد الامثلة على ذلك . لقد تهيأ للأناضول مستقبل مشرق .

قوة الرجل المريض

إن ضعف الدولة العثمانية نابع من اتساع رقعتها ، فاجتماع كثير من الشعوب تحت راية واحدة جعل إدارة هذه الشعوب أمراً صعباً . يخطىء من يظن أن الإجراءات الشديدة ستوصلنا إلى وضع أحسن . إن هذا النوع من الإجراءات لن يؤدي بامبراطوريتنا إلا إلى الفناء . إننا أشبه ما نكون بنهر منحدر فاض عن مجاريه .

ولا يلزمنا أن نكون فلاسفة في التاريخ كي نعلم أن ضعف القوة الوطنية فينا ليس إلا ضعفاً ظاهرياً . فبعد وصولنا إلى أسوار فيينا ، بدأنا نفقد الولايات ، واحدة بعد أخرى . هذا أمر طبيعي . إن عدد سكاننا قليل جداً إذا قيس بالأمم الأخرى . فلا يمكن الاحتفاظ بالبلدان المفتوحة مدة أطول ، ولم آسف على فقد بلاد البلقان التي استعصت على حكمنا واستهلكت الكثير من قدراتنا ، فبقدر ما أمكننا الانحسار والتكثيف بقدر ما نستعيد قوتنا ونتخلص من « المرض » .

وفي اليوم الذي نقوى فيه من الداخل ، ستجد الدول

الأوربية أن « الرجل المريض » الذي يسخرون منه تعافى وأصبح « الرجل القوي » .

المستشارون (١٩٠٠)

من المعلوم أنني تعرضت للاغتيال ، وأوشك المحاولون مرات عدة على النجاح في قتلي ، فلا غرابة في مثل هذه الأحوال أن أحذر كل الناس وأبتعد حتى عن أقرب المقربين . إنها طبيعة بشرية وحس يمكن تفهمه .

يقال إن انزوائي أدى الى انقطاعي عما يجري من الأحداث الداخلية في البلاد . مع أن المخابرات عندي منظمة بحيث لا يمكن بها أن يغيب عن نظري أي شيء .

ويشكو المعارضون من أنني أخضع لتأثيرات مستشار حيناً ومستشار حيناً آخر . إنه خطأ فادح . لم أكن يوماً تحت تأثير عزت [1] بك كما زعموا . لا شك أنني أقدره ، فهو رجل يمتاز برجاحة عقله . والحقيقة انني استمع إلى كل المستشارين وأقيس آراءهم بأعصاب باردة. ثم أتخذ قراري على بصيرة دون أي ارتباك ، فلا أرجع عنه ، وأضعه قيد التنفيذ .

أتقبل الانتقادات بارتياح ، لكنني لا أعتبر نفسي رئيس

---

(١) أحمد عزت العابد الدمشقي .

دولة فحسب لعلهم ينسون أن علي الأخذ بعين الاعتبار آراء جميع المسلمين. الواجب قبل كل شيء أن أتصرف بصفتي رئيساً للمسلمين أي خليفتهم .

جهاز المخابرات والجاسوسية (١٩٠٠)

يبدو أن تحسين [١] يحاول إبقائي بعيداً عن الأمور المزعجة ، مضى زمن غير يسير وهو لا يعلمني حتى بالحوادث الهامة ، ولو لم يعلمني السيد الكبير [٢] بأن سفيرنا غالب بك التجأ إليه ليكون في أمان لما علمت بهذه الحادثة .

يوماً يلتجىء سعيد ويوماً كامل ، ويوماً أحد الباشوات الآخرين . هذا إلى انكلترا وذاك الى ألمانيا وآخر الى روسيا . لعلهم يبتغون بذلك أن يحطوا من قيمة مخابراتنا .

علينا أن نعترف قبل أي أمر بأن جهاز المخابرات شيء مهم لنا . مع التنبه على عدم الإفراط فيه ، فمهما حصل فالذنب ذنب « تحسين » . طبيعي ألاّ يعمد أحد إلى الإساءة إلى أمثال سعيد أو كامل . ومع ذلك فهم يلجؤون الى قوم نصارى بحجة أن حياتهم في خطر ، إنه تعبير عن سخط موجه إليّ وإلى حكومتي .

---

(١) تحسين بك الكاتب الأول للسلطان .

(٢) بيربرتوني السفير الالماني .

لا يمكن القول بأن جهاز الجاسوسية عندنا على درجة كبيرة من السوء بالرغم من أني أريد عمل كل شيء للاطلاع على ما يدور في الحماء وما يحاك من مؤامرات .

الخطوط الحديدية في تركيا (١٩٠٠)

التنافس الشديد بين الدول الكبرى حول إنشاء الخطوط الحديدية في امبراطوريتنا أمر مستغرب يدعو إلى الشك . إن أهمية الخطوط الحديدية ليست حصراً على الناحية الاقتصادية بل تتعداها الى الناحية السياسية أيضاً وإن تناست الدول الكبرى هذا الأمر . والتنافس حول خط حديد بغداد بدأ يأخذ شكلاً بشعاً . أربع دول كبرى تشترك في هذه الحلبة . لا يتورع سفراؤهم عن استخدام كل الوسائل في سبيل استمرار الصراع غير المعلن بينهم . حقاً إنه منظر يمتع ناظريه .

فإنكلترا وفرنسا مزقتا أثواب وقارهما . أما ألمانيا فقد سلكت مسلكاً حسناً . والصحافة الانكليزية والفرنسية بل والروسية أيضاً تختلق الأكاذيب دون أي حرج . لبث الشكوك بيننا وبين الألمان .

وحول إنشاء خط حديد بغداد علمت أن عدداً غير قليل من كبار الموظفين تلقوا هدايا ثمينة جداً . وواضح ألاّ تكون هذه الهدايا إكراماً لسواد عيونهم .

وإذا بدا للبعض أن في موقف النمسا والمجر غرابة ، فلأنهم نسوا أن لهاتين الدولتين مصالح مشتركة مع ألمانيا ، فمد خط حديد الأناضول الى بغداد أمر مهم للنمسا بقدر ما هو مهم لألمانيا ، فالقسم الأعظم من المسافرين والبريد سينتقل عبر النمسا ، وبعد ذلك تكون حيدر باشا نقطة البداية في طريق الهند . إن هاتين الدولتين ستؤيداننا وإن امتلكتا مفاتيح هذا الطريق بأيديهما ، فعلينا أن نطلب مساعدتهما ، بينما لا ينطبق هذا الأمر على فرنسا فبقاء سيطرتنا على استانبول والمضائق أمر لا يهم فرنسا مثلما يهم الدولتين الجرمانيتين . فبفضل نشاطات السيد المحترم [1] استحصلوا على امتياز لمد خط حديد بيروت حوران . وقد يتمكنون من إنشاء الخط الذي سيمتد عبر الهلال الخصيب وبذا يكون طريق الهند مفتوحاً .

خط حديد الأناضول (١٩٠٠)

يقال إنني عندما أعطيت امتياز إنشاء خط حديد الأناضول للمصرف الألماني ، قبلت بشروط غير ملائمة طمعاً في كسب صداقة الامبراطور الألماني .

الحقيقة أن الأجر الذي تعهدنا بدفعه عن كل كيلومتر مبلغ

---

(١) سفير ألمانيا .

كبير . لكن نبوءة الذين قالوا بأن المؤسسة الحديدية ستؤول إلى الإفلاس لم تتحقق .

وقد أظهرت الميزانية السنوية الأخيرة (لعام ١٨٩٩) أن الصرفيات قد عادلت الواردات . ولن يمر وقت طويل حتى تكون المدفوعات الكيلومترية التي التزمناها قد انتهت تلقائياً .

إن خبرتي في المحاسبات ليست سيئة . وحساباتي الشخصية دليل على ذلك .

إنني على يقين من أن إنشاء خط حديد الأناضول أمر مهم بالنسبة لنا بقدر ما هو مهم للمصرف الألماني . لقد تحملوا بعض المصاريف فطبيعي أن يكون لهم نصيب من الأرباح . ثم تبقى لنا بعد ذلك حصة الأسد .

يفهم من التقارير الواردة أن المناطق التي يمر منها الخط الحديدي تزداد انتعاشاً وثراء . وهكذا وجدنا أراضي ملائمة لتوطين المسلمين المهاجرين من أوربا . ويقال إن عدد المسافرين على هذا الخط في تزايد مستمر . لكن المهم هو نقل البضائع ، فهذا هو الأساس عندي . وقد كان الطن من البضائع ينقل من أسكي شهر إلى حيدر أباد على ظهر الجمال بثلاثمائة قرش (٦٠ فرنكاً) أما الآن فلا يزيد هذا السعر على سبعين قرشاً (١٤ فرنكاً) .

وقديماً كانت المحاصيل في المناطق الداخلية تَتْلف في

مواضعها بسبب عدم توفر وسائل نقلها ، فكان المزارع لا يزرع إلا بمقدار ما يستطيع نقله إلى المناطق المجاورة . أما الآن فبفضل أجور النقل الزهيدة أصبح المزارع مطمئناً إلى أنه سيبيع ما تنتجه أرضه فهو يزرع بقدر ما يشاء .

ويقال إن خط حديد الأناضول قد نظمت منشآته تنظيماً جيداً وجهزت بمستودعات للحبوب . على أي حال فإن هذا الخط قد أعطى ثماره أكثر وأسرع مما كان متوقعاً .

علينا أن نحمد الله تعالى ونشكره لتوفيقه ، إننا في تقدم ، وفي تقدم سريع . وهل ينكر هذا الواقع إلا من أعمى الله بصيرته ؟ .

قطّاع الطرق

بعد قيام المجرم « أتانوس » Athanos'un بالتعرض لقافلة ألمانية ، لم أسمع بعملية جريئة في البلاد كما سمعت بحادثة وقعت قبل فترة وجيزة . إذ تعرض رجل فرنسي اسمه « كاساندرا » Cassandra للاعتداء قرب «سيواس» Cümüs ثم اختطف واقتيد إلى الجبال ، وطالب قطاع الطرق بمبلغ كبير من المال كفدية ، ويحتمل أن « فراتيللي » Fratelli اللاتيني (مدير مناجم الفضة) قد دفع هذا المبلغ . لكن كون المخطوف فرنسي التبعية يجعلنا نتدخل لحسم الموضوع ونتحمل بألم نتائج مثل هذه الأمور . وجملة القول : إن قطع الطرق عندنا يكلفنا غالياً . فقبل سنوات دفعنا من أجل المسيو « ريموند » M. Reymond والمدام « برانزو » Branzesuicin مبلغاً كبيراً من المال .

هذه جرائم يقوم بها الروم ، علينا أن نعترف بأن هؤلاء قوم برعوا في فن الاختطاف سبيلاً للتكسب ، والمؤسف أنه إذا قبض رجالنا على أحد من هؤلاء المجرمين قامت الحكومة اليونانية بمطالبتنا بتسليمه وهكذا يُنقذ المجرم من حبل المشنقة .

المؤامرات التي تحاك في مكدونيا

إن جهاز المخابرات عند بعض وزرائي ضعيف . فلم يستطع كشف الغيوم المتجمعة في منطقة حدود بلغاريا . الواقع أننا بقينا مكتوفي اليدين حيال بلغاريا فلم نحرك ساكناً . وقد أخطأنا حينما قبلنا بمطالب « ستامبولوف » Stambouloff'un بإنشاء الكنائس والمدارس في الولايات الأوربية . وعندما علمنا بالوضع الذي وصلت اليه هذه الممالك . كان وقف سير الأحداث أمراً مستحيلاً . فلا يمضي عام إلا وتقوم ثورات . وتغض الحكومة البلغارية نظرها عنها . يقضي الأمير فرديناند إجازته في مصيف ريلو القريب جداً من حدودنا . وهو في نفس الوقت مقر للعصابات البلغارية. لنقل إنه من الصدف العجيبة ! ! .

وأخيراً اشترك في هذه الثورة الأسقف البلغاري «سينسيوس» Sinesiusile والبروفسور « ستويانوف » Stoianoff إنهما استحقا الموت . ولولا تدخل السفير الروسي لنُفذ فيهما حكم الإعدام .

علينا أن نتحدَّ من هجرة البلغار في مكدونيا ، فإنهم

يملؤون جيوبهم مالاً وعقولهم مؤامرات وثورات . فإذا ما رجعوا إلى أوطانهم قاموا بالدعوة الى الثورة والعصيان .

ممدوح باشا

هناك بعض التهم الشديدة موجهة إلى ناظر الداخلية ممدوح باشا وقد فتحت الصحف الأجنبية نيران حقدها على هذا المسكين . تقول هذه الصحف إن تركيا لم تعرف وزيراً أجهل وأطمع وأرشى من هذا الرجل . وتسبق بعضها الى القول بأن عليّ أن أعزله . يريدون مني أن أجعل مرادهم أمراً واقعاً مع أنني لا أفكر في هذا الأمر مطلقاً ، لأنني أعرف الزمرة التي تصوب سهامها الى هذا الرجل . لدي تقرير بأن وزيري هذا قام بتنظيم لجان خاصة للحيلولة دون تجارة التوظيف . مما أدى إلى غضب هذه الجهة الحاقدة .

إن خير جواب يمكن أن أرد به على هؤلاء هو مكافأة هذا الوزير . سأعطيه أعظم وسام في الدولة العثمانية .

الضرائب في تركيا (١٩٠٢)

من الظلم الفاضح أن تقبل الدول الأوربية أمراً لنفسها وترفضه إذا نحن قبلناه . إن وضعنا المالي بحاجة الى نهضة سريعة . ولهذا نسعى الى رفع ضرائب الدخول من ٦٪ الى ١١٪

إنه حق خالص لنا . وليس لأحد أن يماري فيه . لكن السادة السفراء يبدون معارضتهم . وتعرضنا لهذا الظلم أمر مؤسف ومخجل ! مـــن الذي يقوم بنشاطات بلادنا . ومن يتحمـــل مصاريف هذه النشاطات سوى الرعية المسلمين . الضرائب عندنا ثقيلة الحمل . العثمانيون المساكين يؤدون نصف وارداتهم ضرائب حاجيات كثيرة . أما النصارى فلا يؤدون الضرائب الكافية . ويماطلون في أدائها .

ينبغي علينا أن نؤسس نظاماً جديداً للضرائب . وهذا أمر صعب للغاية . فالفلاحون يرضون بالضرائب المفروضة عليهم في الظاهر . لكن انتشارهم في الأرياف والمناطق النائية يجعل مراقبتهم أمراً مستحيلاً . ويمكننا أن نفكر بتقدير الضرائب بعد تهيئة المحاصيل الزراعية بعد الحصاد والدراس والتذرية . وإلا تعرض الفلاح للاجحاف . إذ قد تنزل بمحصوله في فترة من الفترات نازلة لا تبقي ولا تذر . فمن أين يعيش ؟ وأي شيء يؤديه للدولة ؟ .

يؤدي الأتراك ضرائب عن الأرض ($\frac{٤}{١٠٠٠}$) وعـــن المسقفات $\frac{١}{١٠٠٠}$ وعن كل رأس ماعز ٣ قروش وعن كل رأس غنم ٤ قروش . وواضح أنه بعد دفع هذه الضرائب لا يبقى لهم إلا النزر اليسير . فلا مجال إذاً لتحميلهم فوق ما يطيقون . فلا بد أن تقبل الدول الكبرى بضريبة الدخول . إننا نثق أولاً بأصدقائنا وخاصة برلين [١] .

(١) المقصود ألمانيا .

الإصلاحات (١٩٠١)

مطالب الدول في الإصلاحات لا تكاد تنتهي . بالرغم من أنها لا تعرف شيئاً عن البناء الاجتماعي لبلادنا فإنها لا تتوانى عن تقديم التوصيات تلو التوصيات . يتصدر السفراء كراسيهم في قصورهم ، وكأنهم حكام البلاد ، لا تتعدى صلاتهم بعض كبار الموظفين . يصدرون حكمهم من علٍ . لا يعرفون من البلاد سوى استانبول والجزر . ليست لديهم أية فكرة عن التركيب الداخلي لمجتمعنا . لا يعرفون ديننا ولا يفهمونه . مع ذلك فهم دائبون على جعلنا نقبل بنصائحهم . ومن حسن الحظ أنهم لا يتفقون فيما بينهم في الآراء ، لكنهم متفقون في الهدف . غاية همهم من هذه الإصلاحات هي الحط من شأننا أمام أمتنا ، ورفع شأن النصارى وإكبارهم . إنها دسيسة كبرى اختلقوها وسموها إصلاحاً . خير لنا أن يتركونا وشأننا . فالإصلاحات التي يقترحونها ليست أمراً جديراً بالاهتمام . لو أننا تصرفنا بإرادتنا الخاصة لأصبحنا في تقدم مستمر وإن كان هذا التقدم بطيئاً .

لا يجوز أن تقاس بلادنا بمفاهيم أوربية . إن بنية المجتمع في بلادنا بنية دقيقة للغاية . كل حركاتنا وتصرفاتنا يجب أن تنطلق من هذا الأساس . وإلا فكيف يمكننا أن نجعل أقواماً بدائيين يعيشون بجرة قلم عيشة أوربية محضة .

الحركات البلغارية في مكدونيا

كرر زينوفييف Zinovieff [1] إخطاره لنا بأن المادة الخامسة والعشرين من معاهدة برلين (الاستقلال الذاتي) لم تطبق . وكان التوقيت لهذا الإخطار مهيأً له ، إذ صادف الحركات التي قام بها التنظيم السري البلغاري فقامت قوات الأمن بإجراء تفتيش واسع فعثرت في الكنائس والمدارس وبيوت المعلمين والقساوسة على الأسلحة والذخائر والمنشورات التي تدعو إلى الثورة والعصيان ؛ ثم قبضت على مائة منهم فسيقوا منفيين الى سلانيك .

إذا ما انتشرت بذور العصيان في بلد فلن يبقى هناك سكون ولا استقرار . وليست هذه بالمرة الأولى التي برهن فيها البلغار على فظاظتهم وخيانتهم تجاه أمتنا . إننا في سبيل منع نشوب أية ثورة ، نعامل رعايانا بكل تسامح ولطف ، لكننا إذا قبلنا بما

---

(١) هو السفير الروسي « إيفان الكسييفتش زينوفييف » وكان قبل تعيينه سفيراً لبلاده في الامبراطورية العثمانية سفيراً في إيران . وانظر ما كتبه السلطان عبد الحميد عنه ص ١٢١ في سنة ١٨٩٨ .

يريده « زينوفييف » من الاستقلال الذاتي فلن يكون هناك سوى مزيد من الاضطرابات والثورات .

منذ قرن كامل خبرنا بآمال ونوايا العناصر البلغارية والروسية والصربية . فبالاستقلال الذاتي سيسعى البلغار والسلاف نحو التخلص الكامل من حكم العثمانيين .

الرّشوة (١٩٠١)

وجب علينا أن نعزل والي « بورشة » Bursa نعلم بأن بعض الولاة يستغلون مناصبهم في سبيل جمع الثروات . لكن هذا الوالي بلغت به الوقاحة مبلغها لدرجة أن السفير الفرنسي استنكر تصرفاته، فلا شيء يحول دون طرده ولن تفيده شفاعة الشافعين .

ووجب علينا أيضاً إلجام والي بيروت . لقد حملت التقارير إلينا اتهامات موجهة الى ذلك الوالي ، وقد شاركه في التهمة مدير البوليس وقائد المنطقة الساحلية . هؤلاء الخونة لم يعطوا ملايين المهاجرين الوثائق الضرورية لإقامتهم إلا بعد أن أخذوا من كل واحد منهم ثلاث ليرات كرشوة . وبذلك غصبوا ملايين الليرات من خزينة الدولة .

والحقيقة أن أصول الرشوة عندنا سيئة للغاية . إنها عملية تضر مجتمعنا كثيراً . يمكن أن نصفح عن الهدية (البقشيش) المقدمة الى صغار الموظفين ممن قلت رواتبهم وكثر عيالهم . في حال تأخر هذه الرواتب . لكن كبار الموظفين يقبضون

أساساً رواتب ضخمة فعليهم أن يحيلوا هذه الهدايا الى خزينة الدولة لا أن يأخذوها .

وليس ما يسعى اليه الباشوات من اقتطاع للامتيازات أهون شراً من تلك الهدايا . ولا ينبغي لأحد أن ينحط الى درجة التعاون مع أدعياء الصناعة والاتصال بأشخاص مشبوهين بحيث يؤثر على مكانتنا لدى رجال الصناعة والتجارة في الغرب .

الوضع المالي

تحاول الصحافة الأوربية كلما سنحت لها الفرصة ، أن تصور وضعنا المالي تصويراً سيئاً .وكان من المفروض على الأوربيين أن يطمئنوا إلى حالتنا الاقتصادية ، لا أن ينظروا الينا نظرتهم الى اليونان أو رومانيا أو الدول الأخرى ، التي توشك على الافلاس .

الحقيقة أننا حتى عام ١٨٨٥ كنا ندفع فوائد مركبة على رؤوس الأموال الأوربية ، فطلبنا هذا العام إدخال تعديل على نظام الدفع الذي لا يمكن أن نتحمله أكثر مما تحملناه . الذين يعتقدون أننا ندفع لهم فوائد منخفضة ، ينسون أيام كنا نعطيهم النسب الباهظة من هذه الفوائد .

أعرف أننا نفتقر في سياستنا المالية الى الإدارة المدروسة والمراقبة القوية . لكن المركزية القائمة عندنا لا تترك لنا الخيار . لا تملك مؤسسة تدفع الفوائد المترتبة سوى مؤسسة الديون العامة . لا يمكننا أن نعدل وضعنا بسندات الاستثمار ، اللهم إلا أن نسعى لإعادة البناء الاقتصادي بمساعدة من مؤسسة الديون

العامة ويمكن أن نضم إليها مؤسسة الديون غير المؤجلة .
ونستفيد من المصادر الهامة للواردات في بعض الولايات ، أما المصادر الطبيعية للموارد في بلادنا فهي الضمان القوي في حصولنا على قروض جديدة . وبهذا يمكننا أن ننجح في رفع مستوانا الاقتصادي وإيصاله الى الدرجة التي ينبغي أن يكون فيهـــا .

حاجة الدولة إلى الهدوء والاستقرار (١٩٠٢)

أرجو من الله العلي القدير أن يهب لبلادنا الهدوء والاستقرار . فما من بلد يعوزها الصلح والسكينة أكثر مما تحتاجه بلادنا . هناك ثُغْرات كبيرة في الإدارة واسترخاء شديد لـدى الموظفين ، مما سبب قيام ثورات وحوادث عصيان ليس من الجائز السكوت عليها . لكن الشيء الذي يقودنا الى الهاوية أكثر من غيره هو مؤامرات الدول الكبرى . لقد صرفنا الملايين للقضاء على هذه المؤامرات ، كان الأجدر بها أن تصرف على مشاريع حيوية نستفيد منها . كما صرفنا جل أوقاتنا وطاقاتنا دون جدوى . فلم يبق لنا شيء ندخره لغدنا في التطور والتقدم . لو اعترفت لنا هذه الدول بعشر سنوات من الاستقرار لحظيت دولتنا بالتطور الذي حظيت به اليابان . فاليابانيون بعيدون عن مخالب أوربا ، يعيشون في أمان واطمئنان . أما نحن فقد نصبنا خيامنا على ملتقى الطرق بين الوحوش الأوربية الكاسرة .

ثروة السلطان (١٩٠٢)

أمرت بتخفيض مخصصاتي الشخصية كي أكون قدوة حسنة ومثلاً للتضحية عند وزرائي . وكانت الصحافة الأوربية توجه الانتقادات على هذه المخصصات وتراها أكثر من اللازم . لكن هناك أموراً لا تدركها هذه الصحافة أو تتجاهلها ، إنني أصرف من هذه المخصصات على مدينة بأسرها ، وعلى كتيبة الحرس السلطاني ، وعلى رجال القصر ، وعلى ثلث موظفي الدولة . ثم إنني الخليفة وإمام جميع المسلمين فمالي هو مال المسلمين جميعاً . ويشهد الله أنني لم أصرف على نفسي سوى القليل والقليل جداً من هذه المخصصات .

فإذا تجمعت لدي ثروة كبيرة فهي بفضل موارد الغابات والأراضي التي امتلكها . وقد استطاع « أغوس » باشا (١) Agoss بخبرته المالية ودرايته أن يزيد الوارد السنوي إلى خمسين ألف ليرة . كما اقترح أن تكون الأراضي غير

---

(١) ناطر الخزينه .

الوقفية أو غير المملوكة لأحد ، أراضي أميرية (١) .

أما « ميكائيل باشا » Michael (٢) فإنه رجل إداري فذ . فقد تمكن من زيادة مواردنا عن طريق السماح بإنشاء الشركات الاستثمارية ، أما « راغب بك » فقد استطاع أن يستغل الوضع التجاري العام لمصلحة الدولة ، فعقد الصفقات مع تجار الذهب في جنوب أفريقيا ، وجلب بها للخزينة مبالغ ضخمة . وجملة القول ان ثروة السلطان يمكن أن تكون سنداً للدولة عند الملمات .

مؤسسات البريد الأجنبي في الدولة العثمانية

ليس لنا من الأمر شيء ، إننا مضطرون وبكل أسف الى الرضوخ لمطالب الدول الكبرى ، أخطأ « سعيد باشا » عندما طلب من هذه الدول إلغاء مراكز البريد التابعة لها في بلادنا . كان عليه أن يتحين الفرص المواتية وألا يثير انزعاج السادة السفراء . وكان علي ألا أسمح له بهذا الطلب .

بدأت هذه المشكلة عندما سمح أسلافي للفرنسيين بنقل برقياتهم ورسائلهم بأجهزتهم ووسائلهم الخاصة ، ثم تطور

---

(١) أميرية : أي ملكاً لبيت المال ..

(٢) أرمني يحمل الجنسية البلغارية ، صار ناظراً للخزينة بعد اغوس باشا .

الأمر ، فافتتحت الدول الأجنبية مراكز بريد تابعة لها [1] ففوتت على الخزينة مورداً سنوياً ضخماً كما أخلّت بسيادة الدولة العثمانية .

لو استطعنا دفع رواتب موظفي البريد التابعين لنا لعملوا على أداء مهامهم على أحسن وجه . فإن الإهمال من أي جهة كان أمر لا يرضى عنه الله ورسوله .

لقد تمكنت اليابان وهي الدويلة الصغيرة ، من إرغام الدول الكبرى على قبول إلغاء مراكزها البريدية ، أما نحن فمضطرون لتحمل هذا الوضع المخزي .

رؤساء الوزارات (١٩٠٣)

يقال إنني أبدل رؤساء الوزارة كثيراً . انه حكم خاطىء . فاذا ما رجعنا الى كتب التاريخ لوجدنا وبكل وضوح أن أسلافي من السلاطين كانوا يغيرون الرؤساء أكثر مني بكثير . لقد بلغ عدد رؤساء الوزارات منذ تأسيس الامبراطورية وحتى الآن مائتين . فقليل منهم من بقي مدة طويلة ، أما الغالبية فلم تدم رئاستهم أشهراً بل وحتى أياماً في بعض الأحايين .

---

(١) بلغ عدد المراكز كما يلي : النمسا ٣٠ ، روسيا ٢٤ ، فرنسا ٢٠ ، إيطاليا ٨ ، ألمانيا ٥ ، إنكلترا ٤ ، الهند (مستعمرة انكليزية) ٢ .

ففي عهد السلطان محمد الرابع تغيرت الوزارة أكثر من عشرين مرة . أما في عهدي فدون هذا الرقم بكثير . ومن الطبيعي أن أضطر أحياناً إلى إجراء تغيير عندما أحس بالحاجة إلى ضحية سياسية . فأعين أحياناً « كامل باشا » إرضاء لانكلترا ، وتارة أعين الذئب العجوز « سعيد باشا الصغير » وفقاً للمصلحة العامة .

إن استبدال رئيس الوزارة بغيره ليس بالشيء المهم في بلادنا ، ومع ذلك فإنه أمر غير مستساغ . أما الوزراء فلا أستبدلهم إلا في ظروف اضطرارية .

وإبعاد رئيس وزارة واستبداله بآخر لا يستوجب كل هذا الضجيج . فما الفرق بين « كامل » و « سعيد » إذا كان الرئيس الفعلي للوزراء هو السلطان المقيم في قصر يلدز ؟

الانحطاط البدني لدى العثمانيين .

يذكر الدكتور « ريدر » Rider (رئيس أطباء المستشفى) في أحد كتبه أن هناك ضعفاً بدنياً لدى العثمانيين . وان ثلث سكان الدولة العثمانية مصابون بداء الافرنجي .

أرجو أن يكون هذا الطبيب الألماني مخطئاً في تقديره المتشائم . لكن علينا أن نعترف بأن هذا الداء الخطير منتشر في أرجاء المشرق ، وأن أثره السيء على المواطنين في بلادنا أمر مرعب . غير أنه ليس بجديد على هذه البلاد . فهو آفتها منذ القديم . علينا مكافحته بالعناية بالنظافة والصحة وبالقضاء على الجهل .

والأخطر من ذلك الوباء في رأيي هو الإكثار من التدخين وشرب القهوة ، والموت هو العدو الرئيسي للانسان . عرفت بتجاربي الشخصية مبلغ الخطورة في الإكثار من شرب القهوة على الجهاز العصبي . إن شرب القهوة مع ارتشاف سكائر قوية له تأثير سيء على الأعصاب ، ولا يعجبن أحد في هذه الحال من الأمراض العصبية التي نراها في بلادنا . يقال إن للخمر

أضراراً جسيمة وأرى أن التدخين ليس بأقل ضرراً من الخمر . لذا يجب الحد من هذه العادة السيئة .

الرقابة (١٩٠٤)

إن الرقابة أمر حيوي في البلاد العثمانية . يخطىء من يظن غير ذلك ، وقياس مؤسساتنا بمؤسسات بلاد الغرب هو قياس مع الفارق . قد يكون السبب في تقبل النقد الصحفي عندهم هو انتشار الوعي الثقافي بين طبقات الشعب . أما في بلادنا فالشعب لم يزل قليل المعرفة ، سريع الاغترار ، فنحن مضطرون الى أن نعامل رعايانا معاملة الأطفال ، والحقيقة أنه لا فرق بينهم وبين الأطفال الكبار .

فكما أن على الأبوين منع الكتب الضارة عن أولادهم ، فكذلك يتوجب على الدولة أن تمنع المنشورات والكتب من أن أن تؤدي الى الإضرار بأفكار الشعب . فوصول الروايات الفرنسية المترجمة إلى متناول الحريم وإفسادهاللعقول والأفكار هو أمر مؤسف غاية الأسف . وكون مستوردي هذه الروايات افرنسيين أو روماً أو أرمن لا يغير من الأمر شيئاً . فهم قوم مفسدون حيثما وجدوا . لو نشرت هذه الروايات المفتقرة إلى الحقيقة ، دون حذف أو تغيير ، لتضاعفت افتراءات الأوربيين علينا ، فكل هذه الأسباب تجعلنا نستمر في فرض الرقابة على المطبوعات .

الخدمة العسكرية (١٩٠٤)

إن فكرة اخضاع غير المسلمين للخدمة العسكرية لا تعدو كونها خيالاً ، إنها عملية انتحارية بالنسبة لنا . فإذا قبلنا نحن المسلمين أن نخدم في الجندية مع أتباع الأديان والمذاهب الأخرى جنباً إلى جنب لأصبحنا في وضع لا نحسد عليه . فساسة الدول الكبرى وهم أسياد هذه الأقوام غير الاسلامية لا تتردد في إحداث المتاعب والمشاكل في وجوهنا . ثم إنهم يخشون على إخوتهم في الدين من أن يتحولوا عن دينهم الى دين الاسلام .

ثم إن هناك محاذير أخرى مثل احتمال طلبهم إنشاء كنائس في الثكنات العسكرية وتعيين قسيسين للصلاة بهم ولتعليمهم أمور دينهم .

فإذا قيل إنه يمكن تشكيل سرايا خاصة بالعساكر النصارى ، ففي هذا الوضع محاذير أدهى وأمر ، إذ نكون قد أنشأنا بأيدينا جيشاً داخل جيش ، مؤلفاً من روم وبلغار وعناصر أخرى . فإذا ما حدث اضطراب أو عصيان قامت هذه السرايا تقاتلنا من داخل جيشنا ، ومن المعلوم أن النصارى في الممالك العثمانية مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالدول الكبرى يأتمرون بأوامرهم ويتحركون وفقاً لإرادتهم .

الحكم المقيد (١٩٠٥)

لم تتطور بلادنا التطور الكافي لتقبل الحكم الدستوري ، فان هذا الطراز من الحكم خطر كبير علينا . إذ بمقتضاه يكون جميع الرعايا متساوين في الحقوق والواجبات . وهذا أمر يستحيل تطبيقه في بلادنا . فالامبراطورية العثمانية تشكلت من الأتراك والعرب والروم والأرمن والبلغار والأولاخ [١] والأرناؤوط واليهود . فهل ترضى العناصر والمذاهب غير المسلمة أن تستغني عن كنائسها بنفسها وعن استقلالها القضائي . ثم إنه ليس هناك من لسان يجمعنا . فهل ترضى هذه الأقوام أن تهجر لغاتها وتقبل التركية لغة رسمية . فإذا كانت هذه حالنا فكيف تتأصل فينا القومية العثمانية . ومعلوم أن النصارى يلوذون بالدول الكبرى . فروسيا تحمي السلافيين ، وانكلترا تحمي الأرمن وتتفق هاتان الدولتان في حماية الروم .

وتسعى دولة النمسا والمجر الى السير نحو الحكم الدستوري . لكن الأقوام التي يحكمها « آل هابسبورغ » Habsbourglularin

---

(١) أي الأفلاق وهي جزء من رومانيا .

لن ترضى بالبقاء تحت حكمهم ، وستبذل جهودها للانفصال . إنه سيحط من القوة العسكرية والسياسية لدولة النمسا والمجر .

إن الأتراك الشباب قوم خياليون ، فإعلان الدستور وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس شيعاً وأحزاباً يقاتل بعضها بعضاً ، ويؤدي بالدولة العثمانية الى الخراب . وتعاطف الانكليز مع الأتراك الشباب أمر يلفت انتباهنا . فهم يشجعون هؤلاء المفترين على المطالبة بإعلان الدستور ويرفضونه لأنفسهم في الهند المستعمرة . مع أن أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا حيث تعيش فيها عناصر غير متجانسة من المسلمين والنصارى والبوذيين والبراهمة . ومن الصعب جمعهم في مجلس واحد .

الخط الحديدي الحجازي (١٩٠٦)

كان إنشاء الخط الحديدي الحجازي أحد أمنياتي منذ زمن بعيد فبدأت هذه الأمنية بالتحقق . وكان « عز الدين » (١) هو خير إنسان اخترته لتحقيق هذا المشروع . لقد صرف في هذا السبيل كل جهد ممكن . إنه رجل صادق وفيٌّ أحبه وأقدره بالرغم من حسد الحساد ووشاية الواشين من زملائه . لقد نال إعجابي عندما جمع في زمن قصير تبرعات هائلة من المسلمين

(١) الكاتب الثاني للسلطان .

في شتى أرجاء الأرض وبخاصة من مسلمي الهند . وكان من بين المتبرعين إفرنسيون وألمان . وقد كان للأوسمة الجميلة التي هيأها « عزت باشا »[1] ليزين بها صدور المتبرعين أكبر الأثر في زيادة التبرعات .

لقد أثبت الخط الحديدي الحجازي ، أن بلادنا لم تفقد قابليتها للتطور . وأنه يمكننا إحباط محاولات انكلترا المتكررة في عرقلة أي عمل نقوم به لخدمة بلدنا وأمتنا .

سيتم إن شاء الله مد هذا الخط وسنستغني عن قناة السويس[2] وسنربط استانبول بالمدينتين المقدستين مكة والمدينة وسنتمكن من تأمين المواصلات المدنية والعسكرية بكل أمان واطمئنان .

---

(١) أحمد عزت باشا العابد ، وكان سكرتيراً للسلطان عبد الحميد .

(٢) لأن قناة السويس كانت تحت سلطة الانكليز .

قبول القانون الأساسي (١٩٠٨)

انقسم الجيش الى فئتين ، كل فئة تتحفز لضرب الفئة الأخرى . لم تبق لنا إلا وسيلة واحدة لإحباط مؤامرات السياسة الانكليزية ، وهي أن أقوم على رأس هؤلاء الثوار فأعلن الدستور بنفسي وأتظاهر باتباع سياسة الانكليز ، فهذا هو الطريق الوحيد لإفشال مؤامراتهم . وغداً سيفهم المعجبون بأفكارهم الثورية الى أي الطرق المهلكة ستؤدي بهم هذه الأفكار .

آمل أن يتحد جميع العثمانيين ولو في آخر لحظة للعمل على بقاء دولتهم والسير على هدي دستورهم المقدس (القرآن الكريم) مؤمنين به ممتثلين لأوامره وإلا فالمصير الأسود ينتظرنا حيث تتأهب الدول النصرانية لتمزيق أشلائنا وتقاسم الممالك العثمانية فيما بينها .

الفصل الثاني

السياسة الخارجية

فرنسا ومصر (١٨٩٢)

من مذكرات عام (١٨٨٢)

إن جهودنا في سبيل تأمين التدخل الفرنسي في مصر باءت بالفشل وصرف السفير الفرنسي كل إمكاناته ، حتّى ان فراين طلب من مجلس النواب الموافقة على إنزال قوة عسكرية في التل الكبير . لكن هذا الطلب لم يقدر له النجاح خوفاً من نقمة الرأي العام الفرنسي الذي لم ينس بعدُ أحداث « تونكين tonkin'i » . لا يريد النواب الفرنسيون أن يقتنعوا بأن فرنسا لا يمكنها أن تكون الحاكم الوحيد في مصر . حقاً إنهم قصار النظر . إنه لن يمضي وقت طويل حتّى ينجح الانكليز في ضرب النفوذ الفرنسي في مصر والانفراد بالسيطرة على قناة السويس .

سيرى الفرنسيون بعد زمن ليس ببعيد أنهم أصبحوا في منأى عن شؤون مصر .

الانكليز في مصر

إن أكثر ما يجب على المرء أن يحذره من بين الدول الكبرى هو انكلترا . فان الانكليز قوم لا يحترمون إلاّ ولا ذمة . وقد أوضح اللورد « كرانفيل » Granville في شهر تشرين الثاني من عام ١٨٨٢ أن انكلترا لن تغير من سياستها في مصر . وانها تتعهد بتطبيق ما ورد في الفرمانات التي أصدرناها . وأعلن الأميرال « سيمور » Seymour في تموز عام ١٨٨٢ أن الانكليز لا يفكرون في السيطرة على مصر واغتصاب حقوق المصريين بأي شكل من الأشكال . وصرح دوفريه السفير الانكليزي في استانبول بأن انكلترا لن تطالب بأية امتيازات في مصر ، ولا حتى التجارية منها . وعندما وصل الجيش الانكليزي مصر في آب أغسطس ، ادعى الجنرال وولسيلي أن دخول هذا الجيش كان بقصد الحفاظ على سمعة الخديوي . لقد نسيت انكلترا الحرباء كل هذه الوعود وعملت على كسر شوكة مندوبنا السامي في مصر . وتمكنت من تجريدنا من كل شيء لنا في مصر .

ولعل أشد ما يحيرني من أمر فرنسا هو بقاؤها مكتوفة الأيدي حيال كل هذه الألاعيب التي يلعبها الانكليز .

مصر وتركيا (١٨٩٢)

في سبيل استمرار سيادتنا على مصر اضطررنا الى خوض صراع عنيف . فأصبح الباب العالي في موقف صعب أمام انكلترا . أما موقف فرنسا الممالىء لانكلترا فأمر يدعو الى الأسف . وأما ايطاليا فقد خدعها جمال « بنغازي » وحملها على الوقوف في صف الانكليز .

ومع ذلك فقد وجهنا كتاباً إلى الخديوي بتاريخ ١٧ آذار سنة ١٨٩٢ أكدنا فيه أن مصر ولاية من ولايات الدولة العثمانية وأن شعب مصر جزء من الأمة العثمانية [١] فكان لهذا الكتاب وقع طيب في نفوس شعب وادي النيل الذي ما فتىء الإنكليز يحرضونه على العصيان .

وقد فهم عباس وهو الأمير المسلم . أنه لن يستطيع الدفاع عن نفسه ضد الدخلاء الأجانب إلا إذا خلص للدولة العثمانية . ويمكننا تطييباً لخاطره أن نعترف لأسرته الحاكمة بميزة الابن الأكبر في الدولة .

---

(١) هذا يؤكد ان مفهوم الأمة العثمانية عند السلطان هو الأمة الإسلامية .

لو منحت لنا إحدى الدول الكبرى شيئاً من التأييد لاستطعنا أن نخصص جزءاً من موارد مصر (٦٨٥٠٠ جنيه استرليني) للخزينة العامة ، ولو جاء هذا الطلب المحق من إحدى الدول النصرانية لما كان هناك أدنى شك في تلبيته . أما نحن فمضطرون لتحمل تبعات الأخطاء التي ارتكبها أسلافنا . فتذهب واردات مصر كما يذهب قسم من الواردات الأخرى للدولة الى مؤسسة الديون العامة لتنصب منها إلى جيوب الدائنين.

وجملة القول إننا قوم فقراء ، ومقيمون على هذا الفقر بالرغم من غنى بلادنا بالثروات الطبيعية .

وصية السلطان عبد العزيز (١٨٣٩)

لم يعثر على وصية عمي عبد العزيز حتى يومنا هذا . والواضح أن الأوراق التي يقال إنها كتبت في ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هي أوراق مزورة . لأن عبد العزيز كان في هذا التاريخ مريضاً مرضاً شديداً بحيث لا يمكنه أن يقدم على أي عمل فكري . ثم إن الأسس السياسية المذكورة في هذه الأوراق لا تمت بصلة الى النمط الفكري لعمي عبد العزيز . والواقع أنه لم تكن له وجهة سياسية معينة . فتارة الى الأمام وتارة الى الوراء ، وأحياناً الى الشرق وأخرى الى الغرب .

هذه السياسة التي اتبعها عمي هي التي أدت بالدولة الى حافة الهاوية وهي الحال التي وجدتها عندما اعتليت سدة الخلافة .

ويسعى أعداؤنا الآن الى اقناع الناس بعدم جدوى النظام الجديد الذي وضعناه لإنقاذ البلاد من الوضع المتردي ، ويعرضون علينا أسساً بديلة لاصلاحات لا حاجة لنا بها . علينا أن نمضي في تنفيذ برامجنا نحن . ونسير على هدي شريعتنا الغراء إذ ليس لخليفة على هذه الأرض أن يسير الا في هذا الطريق .

والحقيقة ان المبادىء المبينة في وصية عمي عبد العزيز والمبادىء التي نسير عليها الآن ترتكز جميعها على قاعدة أساسية واحـــدة .

الحملات الصليبية على الدولة العثمانيـــة

الحملات الصليبية الموجهة ضد الدولة العثمانية لم تتوقف قط . ولا يزال « غلادستون » Gladstone العجوز يسير على خطا البابا في هذا السبيل . وهل تستحق الدولة العثمانية هذه الحملات وقد آوت النصارى الهاربين من جحيم الصراع المذهبي في الغرب خلال القرون الوسطى . ألم تكن الدولـــة العثمانية هي الملجأ الوحيد لليهود الناجين من بطش محاكم التفتيش في اسبانيا . ألم تبذل جمعية الهلال الأحمر العثمانية كل جهد ممكن لايجاد المأوى والملبس لمن طرد من وطنه في سبيل معتقده . ولكن من يعرف هذه الحقائق التاريخية أو يعترف بها ؟ فماذا يقول « غلادستون » وهو رجل انكلترا الأول عن المسألة الشرقية سوى التعريض بنا بأن بلادنا تحكم بالقوة والبطش لا بالقوانين والأعراف . ألم يثبت كذب ما ادعوه من وقوع مذابح للبلغار والأرمن ؟ .

ألم يتبين أن أمر التخريب الذي زعموه في المدن بعد طرد سكانها هو محض افتراء . وأن النصارى يعيشون مع المسلمين

حياة طبيعية وجنباً الى جنب .

سيرى المراقب المحايد أن المسلمين هم أرحم قلباً من نصارى بلاد الشرق . ها هم الإسبان وقد نشروا الرعب وفجروا حمامات الدم في كافة أنحاء أسبانيا . وها هم الفرنسيون وقد ارتكبوا الفظائع في الجزائر . وها هم الانكليز وقد قضوا على ثورة الهند . وها هي بلجيكا في الكونغو . وروسيا وقد أعملت السيف في رقاب السيبيريين ، أفلا يرون إلا العثمانيين وقد عيل صبرهم من جرائم الأرمن جزاء على الإحسان الذي لقوه من الأتراك في بلاد الأتراك . أفي الأمر عجب إذا قام المسلمون للدفاع عن أنفسهم ؟

لا تريد الدول الكبرى أن تفهم بأن الأرمن قوم عصاة حملوا السيوف والأسلحة للهجوم علينا . ولا تريد أن تعترف بأننا نحن أصحاب هذه الأرض وسادتها . بل تسعى في كل مرة إلى إزعاجنا بطلب الامتيازات وبالمزعجات الأخرى . حتى الحقوق التي اعترفت بها هذه الدول لإمارة « موناكو »(١) Monako لم تعترف بها للدولة العثمانية .

إن الحملات الصليبية على الدولة العثمانية لا زالت مستمرة تحت أسماء وعناوين شتى .

---

(١) إمارة صغيرة في إيطاليا .

السياسة الشرقية لامبراطورية النمسا والمجر (١٨٩٨)

هناك مبدأ في السياسة الخارجية لامبراطورية النمسا والمجر لا يتغير هو : « وجوب عدم تحكم روسيا بالمضائق » تشاركها فيه إنكلترا وايطاليا وألمانيا .

إن وصول الروس الى المضائق لم يكن في السابق أمراً مهماً بالنسبة لألمانيا ، لكن الشقاق السياسي الذي وقع بين روسيا وبروسيا فيما بعد كان في صالحنا . أما الآن فتبدي ألمانيا اهتماماً كبيراً بالمضائق نظراً لتعلقها بمشروع خط حديد الأناضول وبغداد إذ أن مضيق استانبول هو نقطة البداية في خط حديد الأناضول . أما حلم النمسا فيتركز في الاستيلاء على سلانيك ، لكني أعتقد بأن هذا الحلم لا يعدو أن يكون وهماً ، لأن الغد القريب سيكشف عن ظهور حاكم قوي يعمل على إنشاء دولة يوغسلافيا وبهذا يكون قد سد طريق سلانيك أمام مملكة النمسا والمجر ، وستدخل البوسنه والهرسك وأراضي ما بين نهري «درافا — سافا» Drava - Sava ضمن حدود دولة يوغسلافيا الكبرى .

صحيح أن الدولة العثمانية تحكم فئات غير متجانسة ، لكن آل هابسبورغ يحكمون أناساً ليس بينهم أي شبه أو تقارب . فهم أكثر تعقيداً من شعوبنا . كما أن الروابط الدينية معدومة فيما بينهم ففيهم أكثرية كاثوليكية وعدد لا بأس به من الارثوذكس والبروتستانت .

الحكم العثماني في مصر

إن السياسة التي يتبعها اللورد «كرانفيل» Granvillin تجاه الدولة العثمانية ليست مرضية . وقد أثارت أحداث السودان (ثورة المهدي ١٨٨٣ – ١٨٨٤) صدى واسعاً في الجزيرة العربية وكان من المقرر أن نقوم بالتدخل العسكري لنعيد الى المهدي صوابه ولنحافظ على سيادتنا في هذه البلاد ، واتفقنا في هذا الشأن مع شريف (وزير شؤون مصر) كما وافقنا الخديوى على هذا الرأي . لكن انكلترا استنكرت هذا التدخل ، مثلما فعلته عام ١٨٨٠ عندما أزمعنا على إخماد الثورة التي قام بها عرابي باشا في مصر .

أما « بارتلمي سانت هيلاف» Barthelmy Saint - Hilve فكان يخشى أن أستعمل صلاحياتي في مصر كخليفة للمسلمين . لأن نفوذه في شمال أفريقيا ، وفي تونس على وجه الخصوص ، سيكون في خطر . ولهذا تعمد ارتكاب الخطأ الكبير في الوقوف

الى جانب انكلترا في سياستها تجاه مصر . أما اليوم فالتاريخ يعيد نفسه في السودان .

إن سياسة الانكليز في مصر تتلخص في زيادة نفوذ المهدي كزعيم ديني على حسابنا ، والحط من شأننا في الولايات العربية توطئة للقضاء على حكمنا فيها .

صغار الهدايا (١٨٩٧)

بمناسبة يوم ميلاد القيصر العجوز غليوم الثاني سنرسل عدداً من المدافع هدية لمتاحفهم العسكرية واشتراكاً منا في احتفالاتهم بهذه المناسبة .

وهو اقتراح حسن من سفيرنا في برلين . هذه المدافع التي لا نعيرها أي اهتمام تساوي الملايين في تقدير بعض الخبراء . آمل أن يعجب بها قيصر ألمانيا . إنها مدافع ألمانية أرسلوها لنا خلال حرب المجر . ونعيدها اليهم تعبيراً عن روابط الصداقة المتينة بيننا وبين القيصر العظيم . وستكون أحسن أثراً لدى نفوس الألمان من الخيول العربية التي أهديناها سابقاً . فمرضت هناك بسبب تغير المناخ عليها . فلم يتمكنوا من ركوبها والاستفادة منهـــا .

السفير الروسي
« ايفان الكسييفتش زينوفييف » (١٨٩٨)
Ivan Alexevevitch Zinovieff

أرسل امبراطور بروسيا إلينا سفيراً قوياً ، أو خطيراً إن صح التعبير . الحقيقة أن « زينوفييف » رجل نشيط يعرف كيف يقوم بالعمل المنظم . أعرف فيه هذه المقدرة عن طريق عملائي في طهران منذ زمن بعيد .

لقد تمكن هذا الرجل أن يجعل إيران دولة تدور في فلك روسيا ، وهو يجيد اللغة الفارسية ومتعمق بالأدب الفارسي ، فمنحه الشاه ثقته ، فصار له مستشاراً وأمينه المفضل لحفظ الأسرار . فلا يتخذ قراراً إلا بعد أن يستشير صاحبه الروسي .

يجب أن نكون حذرين في تصرفاتنا تجاه « زينوفييف » .

الدولة العثمانية واليابان (١٨٩٨)

لقد تفضل « الميكادو » Mikado حينما أرسل الينا أنواعاً

عديدة من الطيور الثمينة ، هدية لحديقة قصر يلدز ، وقد أدرك السفير الروسي بنظره الثاقب وبأفقه البعيد ، التقارب المنتظر بيننا وبين اليابانيين .

ويحتمل أن يقصد ملك بلاد الشمس في الشرق بتلك الهدية أهدافاً معينة . وفي هذا الصدد أومأ الكونت ايبوكي أثناء توقيعه على الاتفاقية التجارية بيننا وبين اليابان ، إلى أن هذه الاتفاقية وغيرها ستكون ذات منافع مشتركة للامبراطوريتين اليابانية والعثمانية . والميل الى التقارب بين العثمانيين واليابانيين ليس بالأمر الحديث . لكن الباخرة التي غرقت لنا في بحر اليابان أدت الى انقطاع الصلة بصورة فعلية . إذ كانت هذه الباخرة هي صلة الوصل بين البلدين . أما روسيا فهي العدو المشترك لنا ولهم ، لذا فإن الفوائد التي سنجنيها من هذه الاتفاقيات تحمل طابعاً جدياً ، وإن لم تكن بيننا علاقات ديبلوماسية . ويجب علينا أن نؤسس هذه الاتفاقيات على قواعد صحيحة مدروسة كيلا يؤدي الأمر الى وقوع حوادث مزعجة بيننا وبين روسيا .

إنني لا أنتظر من اليابان وهي الصديقة القاصية البعيدة نفعاً كبيراً ، ولكن علينا أن نعرف جيداً مدى النفع الذي نحصل عليه قبل اتخاذ أي قرار بهذا الشأن .

ولكي يمكننا أن نعايش الصديق والعدو ، وحتى لا نعادي أحداً على حساب صداقة آخرين ، يجب أن نحافظ على علاقاتنا مع الدول في مستوى معين وكاف للحصول على النتيجة المبتغاة .

الأتراك والألمان

يقال عن اليونانيين — بسبب حيويتهم — إنهم الفرنسيون الشرقيون . ويقال عن الأتراك أحياناً انهم الألمان الشرقيون . والحقيقة ان بيننا وبين الألمان شبهاً في الصفات . وقد يكون هذا التشابه سبباً في ميلنا نحوهم. فالهدوء ، والحيطة ، والصبر على المشاق . هي الصفات المميزة لهذين الشعبين . وشعبنا بطيء ، رزين . يسبق حلمه غضبه . فيحتمل الأذى طويلاً . ولكنه إذا غضب كان شديداً ، وقد ظهرت فينا هذه الصفة جلياً في الحرب الأخيرة مع اليونان .

والجرأة والاستقامة واللطف والكرم هي صفات الألمان مثلما هي صفاتنا . حتى إن هناك تشابهاً في تاريخ هذين الشعبين ، فالأباطرة الألمان القدماء استهدفوا السيطرة على ما وراء جبال الألب وتأسيس امبراطورية رومانية في الأراضي المستولى عليها . مثلما سعى أسلافنا لتأسيس امبراطورية عالمية تمتد من فيينا الى الهند .

وقد صرف الألمان أكبر جهودهم من غير فائدة كما صرف العثمانيون جل إمكانياتهم لأمور لم تجلب لهم نفعاً .

ألمانيا وفرنسا في الشرق (١٨٩٨)

هناك أسباب مختلفة جعلتني أميل نحو الألمان . وإن لم ترض فرنسا بهذا الميل . ولو لم يكن شيء لتبرير عطفنا تجاه الألمان إلا شخص قيصر لكفى . إنه رجل تحبه النفس وتثق به . فهو جدير بالإعجاب . لقد رفع من شأن بلاده كثيراً .

ومن حيث الأساس فإن الألمان أقرب الى النفس من الفرنسيين . وهم الى العثمانيين أقرب من غيرهم من الأمم . فهم كالعثمانيين بطيئو الحركة والانفعال . لكنهم قوم شرفاء . صادقون نشيطون ومخلصون في عملهم . والفرنسيون قوم يحبون أن يعملوا لكنهم لا يثبتون على عملهم ثبات الألمان . يضيعون جل أوقاتهم في سياسات غير مستقرة على قرار . وثبات الألمان يقابله شوق الفرنسيين . لكنه شوق كلهب القش لا يلبث أن ينطفىء . والألمان إذا بدؤوا بأمر بحثوا فيه وسبروا أعماقه وعرفوا مداخله ومخارجه أما الفرنسيون فلا يملكون هذه الصفة قط .

وجملة القول إن الفرنسيين يبدون الآن أبعد عن قلوبنا مما

كانوا سابقاً ، وقد يكون لاستيلائهم على تونس نصيب في هذا التباعد . كما أن لنظامهم الجمهوري أثراً في هذا الجفاء . وفي رأينا ، لن نجد في بلد نظاماً مستقراً إلا إذا كان الحاكم فيه حاكماً فعلياً .

الحق الممنوح للقيصر

منحنا لقيصر حق حماية الكاثوليك التابعين للكنيسة الألمانية في فلسطين . فبدأت فرانسا بالصراخ والعويل . ألستُ بحاكم هذا البلد ؟ أليس من حقي أن أستعمل كل صلاحياتي في الامبراطورية العثمانية ؟. يجب على الفرنسيين أن يعترفوا بأن عهد « فرانسوا الأول » والعهود التي تلته قد مضت . ولم تعد فرانسا الحامية الوحيدة للمنظمات النصرانية . ناهيك عن أن الألمان قوم واثقون بأنفسهم فلا يرضون بحماية الفرنسيين لهم. إن حماية الكاثوليك الألمان هو من حق الامبراطورية الألمانية لا فرانسا .

إن الفرنسيين وقد فقدوا قدرتهم على حماية الكاثوليك بعد أن كانوا أهلاً لها قرناً من الزمن يرون هذا الأمر ماساً بشرفهم وعزتهم وليس الأمر كذلك فحماية الكاثوليك الألمان تقع على عاتق ألمانيا . إن موقف الفرنسيين من هذه القضية لا يمكن تفهمه . ولا أجد نفسي مضطراً لتأييد الفرنسيين في دعواهم .

ومن حيث الأساس ليس لي حق التدخل في مثل هذه المشاكل .

سياسة الخطوط الحديدية (١٨٩٨)

إن طلبات الامتياز لإنشاء خطوط حديدية لا تكاد تنقطع ، والباشوات يطيرون فرحاً بهذه الطلبات فيرفعونها إليّ ، لما ينتفعون من طالبيها مادياً .

إننا في أمس الحاجة الى مزيد من الخطوط الحديدية فهي تفتح طرقاً جديدة بين مختلف الولايات . فتتحسن بذلك أحوال الشعب المعيشية . لكنها في بعض الأحيان تسفر عن نتائج تضر بالبلاد والعباد . لذا فمن الواجب أخذ جانب الحيطة والحذر .

ومن حيث الأهمية الاستراتيجية ، فإن للخطوط الحديدية أهمية كبرى في سرعة تأمين التحرك العسكري ، وقد تكون سلاحاً ذا حدين إذا استولى الأعداء عليها ، فإنها تسهل على الأعداء الاستيلاء على كافة المناطق التي تمر منها . ولهذا السبب أعارض مدّ هذه الخطوط في مناطق الحدود . أما الدولة التي يمكن أن نعتمد عليها أكثر من غيرها في سياسة الخطوط الحديدية فهي ألمانيا ، لأن الأمر يهمها اقتصادياً ومادياً فحسب .

ويمكننا أن نكتشف النتائج السلبية لمد الخطوط الحديدية

بإلقاء نظرة الى بلدان آسيا الوسطى . فلو لم تسمح هذه البلدان لروسيا بمد خطوطها الحديدية عبر أراضيها لما توسعت روسيا هذا التوسع السريع في أراضيها . ولولا مد الخطوط الحديدية الى ما وراء بحر الخزر لما خضعت إيران للنفوذ الروسي . ولن يمضي وقت طويل حتى تصل الخطوط الروسية إلى خليج إيران والمحيط الهندي . ولأمير أفغانستان العجوز الحق كل الحق في سعيه الى إيصال الخطوط الحديدية والشبكات البرقية إلى بلاده .

لقد وقعنا في مـــأزق حرج إذ اضطررنا الى أن نقبل بابقاء امتياز إنشاء الخط الحديدي في آرضروم وساحل البحر الأسود حصراً على أصحاب رؤوس الأموال الروسية .

إلا أن البدء بتنفيذ هذا المشروع لن يكون قريباً . فلن أسمح للروس بالعمل . فإنهم إن بدؤوا بالجزء الشمالي الشرقي من البلاد توغلوا الى بقية المناطق ووضعوا يدهم عليها بكل سهولة . فلمثل هذا الوعد خطر كبير علينا . إننا بحاجة الى ربط أرضروم بطريق استراتيجي ، لكننا غير قادرين على تحقيق هذا الربط بامكانياتنا . يجب علينا قبل اتخاذ أي قرار ، إعادة النظر في سياسة الدول الكبرى في إنشاء الخطوط الحديدية . فقد نقع في خطأ وضرر كبيرين اذا منحنا امتيازاً خاطئاً . فبلجيكا مثلاً دولة تطلب منا امتيازاً لإنشاء خط حديدي . لكنها من الدول الدائرة في فلك انكلترا ، كما أن النمسا لا تخلو من إثـــارة شكوكنا .

علينا ألا نسمح مطلقاً بمد الخطوط الحديدية عبر ولاياتنا الأوربية كيلا نكون معرضين لاستيلاء الأعداء .

بلاد الصرب واليونانيون

كان للتقارب بين الصرب واليونان فضل في الحد من أعمال الغدر التي يقوم بها البلغار .

ففي الصراع الكنسي بين البلغار والصرب في سكوبيا كانت الغلبة للبلغار ، نظراً لنفوذهم القوي الواسع ، لكن الدعم الذي لقيه الصرب من اليونانيين كان سبباً في إرغام البلغار على الاعتراف بالكنيسة الصربية .

استمر البلغار في تنفيذ سياستهم في « البلغرة » بينما لم يتنبه الصرب للخطر المحدق بهم . أما اليونانيون فقد فهموا منذ أمد بعيد أن عدوهم اللدود في شبه جزيرة البلقان هم البلغار . فاليونانيون هم حلفاؤنا الطبيعيون في ولاياتنا الأوربية ، وهم بحاجة الينا في حماية القومية الهلينية من خطر البلغار . وقد أبلغنا سفيرنا في اليونان أن المظاهرات التي قام بها اليونانيون في أثينا ضد البلغار أثبتت مدى الشعور العارم لديهم في عدائهم كما كانت الكلمات التي ألقاها زعماء اليونان كافية للإعراب عن هذا الشعور . فاذا قامت الحرب بيننا وبين البلغار فإننا واثقون من وقوف اليونان الى جانبنا .

منافسة قناة السويس (١٨٩٨)

اقترح ضابط بروسي متقاعد إنشاء قناة تنافس قنـــاة السويس . يذكر الضابط البروسي في تقريره أن البحوث الجارية في وادي عربة أثبتت أن البحر الميت كان في القدم متصلاً بخليج العقبة . فإذا حفرت قناة بمسافة ٩٠ كيلومتراً فإن نهر الشريعة سيمر بمنطقة وادي الغور البالغ عرضه ما بين ٢٥ ــ ٣٠ كيلو متراً ويشكل بذلك بحيرة تزدهر على جانبيها الحياة الاجتماعية والتجارة وتعود المنطقة الى سابق عهدها في التقدم والرقي .

وبعد دراسة طبوغرافية لهذه المنطقة سيكون ربط البحيرة (ويسميها ببحيرة عبد الحميد) بالبحر المتوسط عملاً مفيداً جداً . وستكون لهذه الأمنية أهمية سياسية الى جانب أهميتها الاقتصادية وبذلك يجري قسم من التنقلات المائية بين سوريا والجزيرة العربية عبر هذا الطريق وستكون الدول الصديقة للدولة العثمانية في غنىً عن استخدام طريق السويس . أما مصاريف إنشاء القناة الجديدة فلن تزيد على المائة وعشرين مليوناً .

أعتقد أن خطة هذا الضابط البروسي جديرة بالدراسة والاهتمام، ومن الضروري تشكيل لجنة خاصة تقوم بالدراسات التفصيلية لهذا المشروع الحيوي .

ألمانيا والأناضول (١٨٩٩)

إن إيقاف الألمان في تصرفاتهم تجاهنا عند حدهم سيكون عملاً له فائدته . يجب علينا أن ننبه السيد الكبير [١] الى أننا غير مطمئنين الى السياسة التي يتبعها .

لقد أعلمنا سفيرنا في برلين أن القيصر يسعى الى تكوين فئات مؤيدة للسياسة الألمانية في الأناضول . إن الاستفادة من الألمان في تسوية أوضاعنا الاقتصادية فكرة صائبة ، لكني لن أقبل أبداً بما تتمناه الصحافة الألمانية من انشاء مستعمرات ألمانية على طول خط حديد بغداد . ويخطىء الألمان اذا ظنوا بأننا سنسمح لهم بإنشاء مستعمرات على أراضٍ ضحينا في سبيلها بكل غال ونفيس . يكفينا ما أظهرناه من تسامح تجاه الأجانب . فالأناضول هي بلادنا وستبقى ملجأ لكل أخ لنا في الدين يضطر الى الهجرة من بلاده .

---

(١) السفير الألماني البارون مارشال « فون بيربستين Von Bierbcstein ».

النفوذ الفرنسي في الشرق

بعد تعيين « المسيو كونستانس» M . Constans سفيراً لجمهورية فرنسا لدينا ، بدأت العلاقات بيننا وبين الفرنسيين تسير نحو الأحسن . فالمسيو « كونستانس » لم يأل جهداً في سبيل إعادة الهيبة لبلاده . وقد علمت أنه اتصل عن طريق ملحقه العسكري بعدد كبير من ضباطنا ، كما وفق الى اجتذاب عدد من النظار [1] وبعض كبار الموظفين في الباب العالي . حتى ان شيخ الاسلام قام بزيارة الى السفارة الفرنسية الأمر الذي لم يكن معهوداً من قبل .

ماذا يبغي هذا السفير من كل هذه الجهود المبذولة ؟ . إن الفرنسيين يخشون من صداقتنا مع الألمان . لو أمعنا النظر في صلب الموضوع لرأينا أن هناك صراعات ومبارزات بين المسيو « كونستانس » [2] والبارون مارشال « فون بيربستين » [3]

---

(١) النظار : جمع ناظر ، وهو الوزير .
(٢) السفير الفرنسي .
(٣) السفير الألماني .

كل جانب يسعى الى إفشال التأثير السياسي الذي يبغيه الآخر . والحقيقة أننا نراقب نتيجة هذا الصراع باهتمام بالغ .

إن صراع الدول الكبرى في سبيل كسب صداقتنا أمر يسرنا ، إذ يقلل من الصعوبات التي تعترضنا في حل مشاكلنا السياسية .

أطماع إنكلترا

يبذل الانكليز كل جهد ممكن في سبيل الإساءة الى سمعتنا في مصر ، وها هم قد خدعوا المصريين بأفكارهم لدرجة أن البعض منهم يؤمن الآن بأن طريق الانكليز هو السبيل الى الأمن والنجاة . وبفضل القومية على الدين . إنهم يظنون أن حضارتهم ستمتزج بحضارة الغرب دون أن يشعروا بأن هناك تضاداً بين الحضارة الاسلامية والحضارة النصرانية بحيث لا يمكن أبداً التوفيق بينهما .

إني أقدر للخديوي وفاءه . لكني أراه يوشك أن يكون من الكافرين . تلقى العلم في جنيف ثم أتم دراسته في فيينا . فلا بد أن يتعود بعادات الغرب .

والانكليز يريدون أن يكون الخديوي خليفة على المسلمين بغية اضعاف شوكة الاسلام وتمكين حكمهم ، ولكن ليس هناك من مسلم يعتز بدينه يقبل أن يكون ذلك الخديوي خليفة على المسلمين .

ولا يستغربن أحد أن يقوم الانكليز بتنصيب اللورد « كرومر » Gromer'i إذا اقتضى الأمر – خليفة على المسلمين .

الجزيرة العربية وانكلترا (١٩٠٠)

كتبت الصحف الانكليزية أكثر من مرة عن سياسة انكلترا في الجزيرة العربية ، ولكن ليس من صحيفة قالت ما قالته « ستاندارد » Stondart في صريح العبارة من أن جزيرة العرب يجب أن تكون تحت حماية الانكليز . وأنه من الطبيعي أن تكون انكلترا وهي تحكم ٥٦ مليوناً من المسلمين صاحبة المدن الاسلامية المقدسة .

إننا نعترف آسفين بأن لانكلترا نفوذاً قوياً في الجزيرة العربية ، إذ بدأت في إحداث المشاكل في اليمن وحرضت القبائل العربية على إعلان التمرد .

أما عدن فهي المقر العام لأعمال التخريب التي يديرها الانكليز في الجزيرة العربية ، والأسلحة التي يستعملونها كانت مخبأة في مستودعات عدن . إننا في وضع حرج ليس علينا إلا أن نوزع الهدايا والهبات على رؤساء هذه القبائل وندرأ عن أنفسنا غوائل ومؤامرات الانكليز .

وتسيطر عدن على الجزء الشرقي من إفريقية فهي للجزيرة العربية كمضيق جبل طارق للمغرب وإنني أفضل أن تكون في

البحر الأحمر قواعد للأساطيل الفرنسية والألمانية الى جانب القواعد الانكليزية . أما إنكلترا فتعارض هذا المطلب معارضة شديدة ، فلو اتفقت فرنسا وألمانيا في هذا السبيل لأرغمتا «جون بول [1] John Bull » على الرضوخ لمطالبهما .

إن الانتهاء من إنشاء الخط الحديدي بين الشام والحجاز في أقرب وقت ممكن أمر يهمنا . فاذا زادت أعمال التخريب والاضطرابات كان من السهل علينا إرسال قوات الى تلك المناطق بسرعة والأمر المهم الآخر هو تقوية الأواصر بين المسلمين كي تتحطم على صخرتها كل المؤامرات والألاعيب التي يحيكها الانكليز .

بلغاريا (١٩٠٠)

عثر نجيب (مندوبنا السامي في صوفيا) على وثيقة هامة جداً . إذ يقول « زينوفييف » Zinovieff'in السفير الروسي في استانبول في رسالته الى « فرديناند » Ferdinand'a أمير بلغاريا : « لم يئن الأوان لكي تعلن بلغاريا استقلالها ، وسيتعين على سموكم انتظار الفرصة الملائمة ، ولن تقدم روسيا في الوقت الحاضر أي وعد بالمساعدة ، فيجب قبل كل شيء أن تضمنوا عون النمسا ...» . ومع هذافما كان

(١) رئيس الوزارة الانكليزية .

لنجيب — وهو الرجل الذكي الماكر — أن يصرف كل هذا المال في سبيل الحصول على مثل هذه الرسالة . لقد أخبرني سفيرنا في فيينا قبل مدة ليست باليسيرة أن الأمير «فرديناند» قام بمبادرة لدى امبراطورية النمسا والمجر كي تساعده في الحصول على استقلال بلغاريا . إن الأمير «فرديناند» وإن أظهر اللطف والوفاء ، لا يستحق ثقتنا ، خاصة وهو يسعى الى أن يعلن نفسه ملكاً على بلغاريا . فاذا كنا نريد ألا نفقد من اعتبارنا كدولة عظمى فعلينا ألا نسكت على هذا الأمر ، ولن نسكت أبداً . وإذا ظهر شيء في هذا الصدد فلن نتردد في إرسال جيشنا المرابط في أدرنة الى صوفيا فوراً . وعلى روسيا أن تفكر جدياً قبل التدخل في هذا الموضوع . واذا أرادت النمسا أن تلعب دور الدولة المؤيدة لبلغاريا فستكون قد ارتكبت خطأ كبيراً .

السياسة الألمانية في الشرق (١٩٠٠)

يقال عن « بسمارك » إنه لا يخفي أفكاره خلف الكلمات التي يتفوه بها كما هي حال كل سياسي بل تكون كلماته تعبيراً عما يجول في نفسه من أفكار . فإن صح ما قيل فإن قوله : « إن الجيش البروسي أسمى وأغلى من أن يضحى به في سبيل الشرق » لا يمكن أن يعبر عن فكره الصحيح . والا فيعتبر رجل دولة قصير النظر وضيق الأفق . ويحتمل أنه قاله في وقت كان فيه الانشغال بأمور الشرق سابقاً لأوانه .

لو فهم الألمان أن بقاء الدولة العثمانية قوية أمر حيوي لألمانيا لكان خيراً لنا ولهم . أما عدم رغبة بسمارك في قبولنا طرفاً في الحلف الثلاثي فأمر يستدعي التأسف .

وليس للامبراطور الروماني أي عذر عندما تردد في قبولنا عضواً في ذلك الحلف .

على ألمانيا أن تعدل عن فكرة إنشاء مستعمرات في بقاع شتى من الأرض وتكتفي بمد نفوذها إلى خليج إيران فذلك خير لها ولنا جميعاً .

الدولة العثمانية واليونان

يجب على سفيرنا في أثينا « رفعت بك » أن يبذل قصارى جهده في سبيل استمرار علاقاتنا مع اليونان على أحسن وجه ، لا أريد أبداً أن نضطر الى محاربة اليونان ، هناك موجبات كثيرة لتبقى العلاقات بين الدولتين دون شوائب .

إن اليونانيين بحاجة الى مساعدتنا كي يقفوا في وجه الاحتلال البلغاري – السلافي . وفي صراعنا مع البلغار ، لن نجد لنا عوناً إلا اليونانيين ، وسيكفل هذا الاتفاق التخفيف من حدة الدعاية المعادية للهيلينية في مجموعة الجزر وفي ولايات الأناضول . إن الروم المقيمين في الامبراطورية العثمانية يبلغ عددهم المليونين وهم يسيطرون على الحياة التجارية . وقد

ارتكب الباب العالي [1] خطأ لا يغتفر إذ انصاع للتوصيات الروسية ، فأبعد بطريرك الروم ووضع مكانه واحداً من الكنيسة البلغارية Exarchat .

انني سأرتاح للاتفاق العثماني — اليوناني ، وأرغب في إرسال وفد خاص الى أثينا للتمهيد لهذا الاتفاق وشرح وجهة نظرنا في أهميته .

فرنسا والعثمانيون (١٩٠١)

إن العلاقات بيننا وبين فرنسا لا تسير سيراً حسناً ، يبدو أن الفرنسيين لا ينسون الزيارة التي قام بها الامبراطور [2] الألماني لبلادنا .

كنا قبل قرون خلت موجهين أنظارنا صوب فرنسا . إذ تعود صداقتنا معها إلى عهد لويس الرابع عشر الذي أعلن أنه لن يتحالف مع أية دولة أوربية تعادي العثمانيين الأبطال .

ولا شك أننا مدينون في إصلاح جيشنا ، وفي سلاح مدفعيتنا بوجه خاص للضباط الفرنسيين ، ولم يعدم جيشنا بعد ذلك التاريخ من ضباط فرنسيين حيث كان اشتراكهم في حرب

---

(١) رئيس الوزارة .

(٢) الامبراطور غليوم الثاني .

القرم رمزاً للتحالف العثماني الفرنسي . ولنا أن نقول إن السنوات الأخيرة من تاريخنا هي العصر الذهبي للعلاقات مع فرنسا . والاصلاحات التي نفذت في عهدي سلفيّ «عبد العزيز» و «عبد المجيد» هي إصلاحات مستمدة من فرنسا ، وكانت المدارس والمعاهد العسكرية تحت تأثير النظام الفرنسي ، وأول خط حديدي في بلادنا أنشيء من قبل الفرنسيين ومن الطبيعي أن تحز في نفوسهم رؤية المستشارين الألمان وهم يشرفون على مد الخطوط الحديدية . إنهم لا يطمئنون على ازدياد النفوذ الألماني في الشرق .

وقبل عشرين سنة على وجه التقريب رأى بسمارك ألاّ يضحي بجندي بروسي في سبيلنا ، ثم وفق الألمان بعد ذلك الى تقوية نفوذهم بالطرق السلمية . كما بذل السفير الفرنسي « كونستانس » Constans جهداً عظيماً لمصلحة بلاده . فاستطاع التوسع في نشر الثقافة الفرنسية والحصول على بعض الامتيازات .

وقد أخطأنا عندما ألغينا امتياز فرنسا في السواحل ، فلا نكاد الآن نخلص من مشكلة إلا وتعترضنا مشكلة أشد تعقيداً ، كمشكلة البريد ومشكلة الصحة العامة ومشكلة الديون العمومية ... الخ .. إن تدهور العلاقات بين الأصدقاء القدماء يدعو الى الأسف ، فقد يخطيء المرء دون قصد منه . أما علاقاتنا مع أعدائنا التقليديين (الروس) فتسير نحو التحسن .

انكلترا وخليج إيران (١٩٠١)

علمتُ أن عدداً من الضباط الانكليز العاملين في الجيش الهندي رغبوا في زيارة بعض ولاياتنا الكائنة في بلاد ما بين النهرين فتمكنوا عن طريق القنصل الانكليزي من الضغط على ولاتنا واستصدروا أذونات الزيارة . ومن الواضح أن لهؤلاء مرامي سياسية وراء زياراتهم وإن كانوا ينكرونها . يجب أن نختلق الحجج للحد من هذه الرحلات الاستكشافية . فإن أهمية شط العرب من حيث كونه مفتاح بلاد ما بين النهرين تجعلنا لا نرضى باستيطان الانكليز فيها .

إن الانكليز يرغبون في الاستيلاء على البصرة على وجه الخصوص . وقد أعلمني بعض أعيان تلك المنطقة أن الانكليز يصرفون أموالاً طائلة في هذا السبيل وأن الثري الخداع المسمى « بيوسف ابراهيم » يعمل لحسابهم .

لقد جاء الى الجزيرة العربية في السنوات الأخيرة عدد كبير من الانكليز ، حجتهم السياحة ، وهدفهم إجراء دراسات حول انشاء خط حديدي يربط وادي النيل بخليج إيران . حيث يمكنهم بهذه الطريقة تحديد مستقبل هذه المنطقة بأسرها .

تركيا ودول البلقان (١٩٠١)

حكى لي شيخ عجوز يهتم بأشجار القصر [١] ، ان الاضطرابات السياسية في شبه جزيرة البلقان تشبه قصة الأشجار الخمسة : شجرة تفاح ، وشجرة أجاص ، وشجرة خوخ ، وشجرة سنديان ، وشجرة صنوبر ، غرست بجانب بعضها ، بحيث تشابكت أغصانها ، وكانت شجرة السنديان هي المسيطرة على جاراتها ، لكن أوراقها السفلى كانت تتساقط بسبب حجب الشمس عنها ، ثم حدث خلاف بين هذه الأشجار حول اقتسام الهواء والشمس ، ثم جاءها من يقول : لِـم هذا الخلاف ، لكل شجرة الحق في الحياة ، ولا فضل لشجرة على أخرى فكل شجرة ستعيش في مكانها دون أن تؤثر أو تتأثر بأخرى » .

فشجرة التفاح في هذا المثال هي رومانيا ، والخوخ هي يوغسلافيا ، والصنوبر هي اليونان والأجاص هي بلغاريا وشجرة السنديان التي تساقطت أوراقها هي تركيا لكن الأوراق تتساقط دون أن يتأثر أصل الشجرة . لأن الأوراق المريضة بحد ذاتها تشكل خطراً كبيراً على أصل الشجرة وجذورها .

---

(١) أي قصر يلدز وهو مقر السلطان .

انكلترا والجزيرة العربية

يخطىء الانكليز اذا ظنوا أنهم سيسيطرون على تصرفات شيخ الرياض عبد العزيز بن سعود الذي يسعى لإحياء الحركة الوهابية .

إن ابن سعود يعرف جيداً مدى حرمة الاقتداء بالانكليز ، وقد خيل اليه في فترة من الفترات أنه سيكون حاكم الجزيرة العربية فأراد نيل الاستقلال بمساعدة الانكليز ولكن لم يخطر بباله أنه سيقع في مصيدة هؤلاء الانكليز . وقد أدرك الآن هذا الخطر . أما شيخ الكويت مبارك فقد استطاع أن يتخلص من مصيدة الانكليز ويغير وجهته الينا .

إذا سيطر الانكليز على هذه المنطقة فسيكون خط حديد بغداد في خطر . لقد رُفع العلم الانكليزي في الكويت عام ١٩٠١ لكن حرب « الترانسفال » Transval [١] أضعفت الانكليز ، فكان لاستنكارنا الاحتلال الانكليزي للكويت أثره الفعال .

أما ألمانيا فقد أعلنت عن مشاركتنا في رأينا تجاه هذه الأحداث وأعربت عن تأييدها القوي لهذا الاستنكار .

---

(١) أي الحرب في جنوب إفريقيا .

ظلم الانكليز

إن سكوت الدول الكبرى على الفظائع التي يرتكبها الانكليز في ظفار ، وصمة عار في جبين هذه الدول .

أليس من الخيانة أن تُرغم قبيلة على العودة إلى أرض قاحلة هجرتها لانعدام وسائل العيش فيها ؟ « القبيلة هي قبيلة علي بن علي البالغ عدد أفرادها ألفين ، ورئيسها هو الشيخ سلام » .

ففي هذه الحادثة قام القنصل الانكليزي « ويلسون » Wilson في «بوشير» بعمل وحشي يعجز اللسان عن وصفه ، فبالرغم من تحذيرات السلطات الادارية العثمانية في تلك المنطقة قامت السفن الانكليزية بضربها ، فدمرت عدداً كبيراً من البيوت وقتلت مئات النساء والأطفال والشيوخ .

إن الانكليز الذين أقاموا الدنيا وأقعدوها خلال ثورة الأرمن لا يتورعون الآن — وهم قوم متحضرون — عن أن ينزلوا أبشع الضربات في تلك المنطقة . أما الدول الكبرى فقد التزمت جانب اللامبالاة ، ويفهم مما تقدم أن معاني الرحمة قد انعدمت في قلوب الأمم النصرانية .

روسيا وخط حديد بغداد (١٩٠٢)

عندما أعطينا امتياز إنشاء خط حديد بغداد للمصرف الألماني ، وجهت الصحافة الروسية الينا انتقاداً شديداً . إن هذه الصحافة ليست على بصيرة من أمرها . إذ أن إنشاء هذا الخط من قبل الألمان هو في صالح الروس . لأن تواجد الألمان في الأناضول وبلاد ما بين النهرين أقل خطراً من تواجد الانكليز . فالألمان بسبب وضعهم الجغرافي لا يستهدفون إلا منافع اقتصادية ومادية بحتة وليست لهم مآرب أخرى كما هي الحال مع الانكليز . فانكلترا ستحاول يوماً الاستيلاء على هذه الخطوط ، وسيكون هذا الاستيلاء وبالاً على الروس .

ويمكن للروس أن يجدوا سلواهم عن الخسائر التي لحقت بهم في الصراع من أجل خط حديد بغداد ، وذلك في المكاسب التي حققوها في إنشائهم خط حديد إيران .

السياسة الشرقية عند الروس (١٩٠٢)

إن الأسس التي اتبعتها روسيا في سياستها تجاه الشرق خلال قرن من الزمـــان هي التطبيق العملي للتعليمات التي وضعها اسكندر الأول في ١٩ نيسان سنة ١٨١٢ . إذ يطلب هذا الامبراطور في تعليماته الى رجال السياسة وموظفي الدولة أن يغرسوا في قلوب الأمم البلقانية حب الروس ، وتحريض الناس على تأسيس مملكة « صربيا » و « سلافيا » في «صربستان» و « البوسنه والهرسك » و «دالماسيا» و «مونتينفرو» . وإن أمم البلقان بحاجة الى التحالف مع الروس في صراعهم مع الدولة العثمانية والنمسا .

والحق ان رجال الدولة في روسيا يسعون الى تطبيق هذه التعليمات الى يومنا هذا بحذافيرها ، وقد أجبرت النمسا بسبب أوضاعها الداخلية على مسالمة الروس ، وقد ساعدها التأييد الانكليزي — الألماني في منع تحول ولاياتها المنتشرة على ضفاف نهر طونه (١) الى امارة روسية ، ولم تستطع النمسا الحد من

---

(١) هو نفسه نهر الدانوب .

الدعاية الروسية في حينها ، حيث أضاعت فرصة ذهبية ، فأحاطتها روسيا ببلغاريا وصربيا ومونتينفرو ، وباتت هذه الدول تصر على مطالبها في هذه الدولة المحاطة .

انكلترا الضعيفة في الهند (١٩٠٢)

ينبغي على الأمم التي يعاديها الانكليز ، وعلى وجه الخصوص أذكر روسيا وفرنسا وألمانيا أن تولي الصداقة مع الدولة العثمانية اهتماماً خاصاً .

إن كل إنسان يدرك أن كلمة واحدة مني بصفتي خليفة للمسلمين تجعل حكم الانكليز في الهند في مهب العواصف . لو أراد الروس والفرنسيون والألمان أثناء حرب «البوير» Boer هدم صرح الانكليز في الهند لاستطاعوا بفضل تأييد منا أن يهدموا هذا الصرح . لكنهم لم يتحركوا في الوقت المناسب فأضاعوا الفرصة الذهبية . وقد يكون لصلة القرابة بين الامبراطور الألماني وملك انكلترا دور في عدم لجوء ألمانيا الى الشدة أمام انكلترا .

لقد كان الوقت مناسباً لمحاسبة الانكليز على ما اقترفوه بحق الهنود المساكين وإننا لنأسف على الفرصة الضائعة . ولكن لا بد من يوم ينتقم فيه الهنود من الانكليز فيحطمون القيود ، ولا بد أن تهزم ملايين الهنود شرذمة الانكليز الذين نهبوا ثروات بلادهم واستغلوهم واستعبدوهم أبشع استعباد .

بنغازي (١٩٠٢)

إن حكمنا لبنغازي يكلفنا غالياً ، نصرف من أجلها أموالاً طائلة ، كما أن مؤامرات الايطاليين لا تكاد تنتهي .

لقد عرض علينا الايطاليون ٥٤ مليون ليرة، على أن نعطيهم إمكانات اقتصادية في هذه المنطقة . إنه عرض جدير بالدراسة لأننا بهذا العرض سنوفر على أنفسنا عناء كبيراً . وسيكون بأيدينا المال الكافي لحل بعض الأمور المستعصية . أما إذا رفضنا هذا العرض فانهم سيلجؤون الى القوة (١) .

وإذا كان هناك أحد يمكنه الدفاع عن حقوقنا فهو الشيخ السنوسي ، فهو قادر على أن يجمع حوله ثلاثين ألفاً من الرجال ، ولن يتخلى عن بنغازي إلا بعد قتال . ثم إن صلته بمئات الألوف من أتباع الطرق والمريدين قوية ، فإذا قام السنوسيون قومتهم فلا بد أن يجروا الايطاليين الى صراع دموي أشد مما شهدته السودان في ثورة المهدي . لقد جهزنا السنوسيين بمقدار كاف من الأسلحة والذخائر لذلك فهم قوة لا يستهان بها أبداً .

---

(١) احتلت ايطاليا طرابلس وبنغازي سنة ١٩١١ .

دسائس البلغار

أوضح التقرير الذي بعث به مندوبنا السامي في صوفيا ، النوايا السيئة التي تضمرها الحكومة البلغارية ، ونداءات الثورة على حكمنا تشتد يوماً بعد يوم . أما الكلمات التي ألقاها بعض قادة المنظمات البلغارية في صوفيا فكانت في غاية العنف .

وقد سرد الخطباء حوادث الظلم في ولاياتنا الأوربية ، وادعوا بأننا أعملنا السيف في رقاب الناس في مكدونيا . ثم أعلنوا أن لا مكان للعثمانيين في أوربا المتحضرة . إنهم يتكلمون وكأنهم على غير علم بالمستوى الحضاري للبلغار . ولم يكتفوا بتجاهل أنفسهم بل اتصلوا بكثير من الأمم الأوربية وطلبوا منهم العمل على إدخال ممثلين بلغاريين في جلسات المحكمة العسكرية في سلانيك ، إنهم يريدون أن يظهروا أنفسهم بمظهر الخراف بأيدي الجزارين .

إن حماية شعبنا من المنظمات الإرهابية البلغارية هي حقنا بل هي واجبة علينا . ولو أخلصت الحكومة البلغارية ولاءها لاستطاعت أن تجد طريقة تمنع عن شعبها إرهاب أبنائها .

رومانيا والامبراطورية النمساوية - المجرية

أبلغنا سفيرنا في «بخارست» أن الدبلوماسيين الروس ما برحوا منذ فترة يسعون الى تحسين العلاقات مع رومانيا ويعملون على تخريب علاقاتها مع امبراطورية النمسا والمجر . وتبذل روسيا كل جهد ممكن لتنشيط الروح المعادية للرومانيين ثم لتأليب رومانيا على المجر . أما المجريون فلا يدركون خطورة تهجير الرومانيين المقيمين في المجر . لذلك فان مليونين من الرومانيين يمدون يد الاستغاثة الى إخوانهم في الوطن الأم . فعلى حكام المجر أن ينتبهوا إلى هذا الخطر .

لهذه الأسباب فإن تدهور العلاقات السياسية ، ومحاولات تخريب مجالات التعاون بين رومانيا وامبراطورية النمسا والمجر أمر يدعو الى الأسى والأسف .

رومانيا (١٩٠٣)

إن الميل الى التقارب بين امبراطورية النمسا والمجر وبين

رومانيا لا بد أن يدخل السرور الى قلوبنا . وبالرغم من كل حفاوة تبديها روسيا تجاه رومانيا ، فعلى رومانيا ألاّ تتعاون معها . والحقيقة أنها لن تستطيع التعاون وإن أرادته وسعت له سعيها . فامبراطورية النمسا والمجر هي السند الطبيعي والوفي لرومانيا فقد ربطهما نهر « طونة » Tuna في مصير مشترك .

لقد أدى تدخل رومانيا في الحرب الى ترجيح كفة روسيا في حين لم تكافئها روسيا الا بمزيد من الخداع والتضليل وزادته باحتلال منطقة « بسيرابيا » Beserabya'gi الرومانية فهل تنسى رومانيا هذه الفعلة .

إذا أرادت رومانيا ألا تبتلعها الأمواج السّلافية المتعاظمة فعليها أن تربط مصيرها بمصير النمسا .

وعلى النمساويين أن يزيلوا من مخيلتهم احتلال سلانيك . ويولوا وجوههم شطر ميناء « كونستانزه » الهام من الناحية الاقتصادية فان ميناءنا الجميل (سلانيك) بعيد عن منال آل هابسبورغ . ولن نفتح لهم الطريق بالسهولة التي يتصورونها .

كان علينا أن نصفي حسابنا مع هؤلاء قبل سبع سنوات لكن روسيا تارة وانكلترا تارة أخرى تمسكنا كلما رفعنا أيدينا لنصفع بها ذلك الشقي البلقاني ، فهاتان الدولتان كفأرين يعملان على خراب بيوتنا . لقد كانت فرنسا تقف إلى جانبنا كلما أردنا منها العون . لكنها صارت تبتعد عنا يوماً بعد يوم . ونحمد الله أن هيأ لنا ألمانيا التي سنجدها إلى جانبنا توقف كل دولة عدوة عند حدها .

مكدونيا والتمرد البلغاري (١٩٠٣)

شكا إلينا الروس ما أسموه بأعمال القمع التي يقوم بها جنودنا ضد المنظمات البلغارية . ومن المعروف أن البلغار لا يتورعون عن تزييف الحقائق أبداً .

وقد علمت مؤخراً أنه بالرغم من الهجمات الوحشية التي يشنها العصاة البلغار ، فان جنودنا معتدلون في الرد على الهجمات . ولا يتعدى كونها عمليات دفاعية مع أن هذه الأحوال تقتضي نقل أعمال القمع الى معاقلهم وضربهم في أوكارهم . وقد أفاد التقرير الذي بعث به قائدنا العسكري أنه جرى اشتباك بسيط بين جنودنا وبين الأشقياء البلغاريين في « أكري — بلانكا » Egripalanka'da ، فبالغت الصحف البلغارية وسمت هذا الاشتباك معركة . هؤلاء البلغار الذين يظنون أننا غافلون عما يعملون ، سيلقون الدرس المناسب من حيث لا يدرون . والحقيقة أن « فرديناند » Ferdinand لم يجرؤ يوماً على مهاجمة ولاياتنا الأوربية . وذكرت أنباء « بلغراد » أنه اتفق مع صربستان كما لقي الدعم من الروس قبل أن يقوم بهذا الهجوم .

وقد قابلت لجنة مكدونيا «اغناتييف» الذي يقيم في «سانت بترسبورغ » وطلبت منه تأمين الحماية الروسية . فَسُرَّ الروس من هذا التصرف . إذ به سيسترجع الامبراطور الروسي ما فقده من نفوذ في منطقة البلقان في السنوات الأخيرة .

وبدأت الصحف الروسية منذ الآن في رفع أصواتها مطالبة بتطبيق المادة ٢٣ من معاهدة برلين . أما نحن فلا نملك حيال هذا الوضع إلا أن نسخر من الذين يظنون أننا سنرضخ لهم .

لقد أخطأنا إذ منحنا البلغار امتيازات أكثر مما يستحقون ، فأصبحت المدارس البلغارية التي افتتحت بموجب هذه الامتيازات أكبر مصدر لعدائنا . ومما يثبت خطورة افتتاح هذه المدارس . اضطرار السلطات الإدارية الى اعتقال كثير من مدرسيها .

لو لم يستمر البلغار في تزييف الحقائق وتأليب الشعب لما وقعت هذه الحوادث . ولقد أصبحت صوفيا مركزاً لهذه الاضطرابات . أما الغاية التي يتوخونها من الحركة الأخيرة فهي لفت نظر أوربا الى ما أسموه بالتنكيل والتعذيب في مكدونيا . أما صحافتنا فليست تملك تلك المهارة كي تفضح الأكاذيب . ومع ذلك فإن الأوربيين يعرفون بأن البلغار ليسوا بالخراف بل هم الذئاب المتوحشة التي تنهش في أعراض الناس في ولايات الحدود منذ اثني عشر عاماً دون انقطاع . لقد كلفتنا أحداث التمرد البلغاري الكثير من الأموال والأنفس . لكن الدول الكبرى لا تريد أن تفهم الحقيقة . فالذنب كله عندهم هو ذنب العثمانيين .

خط حديد سوريا ـ الهند (١٩٠٣)

ما زالت الدول مستمرة في عروضها لإنشاء خط حديدي يبدأ من اسكندرون ويمتد حتى خليج إيران ، ماراً بحلب فبغداد ، إنني اؤمن بضرورة إنشاء هذا الخط ، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار سهولة مدّه ، وأهمية مدينة حلب ، وكثافة السكان في المناطق التي سيمر منها هذا الخط . إلا أن هذا الإنشاء ، سيؤدي الى توافد عدد كبير من الأجانب الى البلاد وبالتالي الى حدوث تغيير جذري سريع في كل المجالات .

وبعد إنشاء الخط بين اسكندرون وحلب ستتحول المواصلات الى هذا الخط . وستكون نهاية النقل الجاري الآن بالقوافل عبر طريق بيلان . وسينضب المورد المعاشي لملايين الناس الذين يعملون في هذه الطريق ، انه من أهم الطرق في الامبراطورية . اذ يستخدم فيه أكثر من ٦٠٠٠٠٠ حيوان للنقل .

ولا يجوز أن تعطى امتيازات إنشاء هذا الخط لمتعهدين أجانب ، فإذا كان العرض من متعهد أرمني فلا بد أن يكون

وراءه مال انكليزي . وهذا يعني ترك وادي دجلة والفرات لقمة سائغة للانكليز ، فانهم سيتحركون متى شاؤوا من اسكندرون لاحتلال المنطقة بأسرها .

بلغاريا والدعاية المعادية للسلافية [1] (١٩٠٣)

تهدف روسيا الى بث الدعاية المعادية للسلافية والوصول بها الى المضائق . والبلغار هم طليعة هذا الهجوم الروسي وأداته . فإنهم لا يخالفون لامبراطور روسيا أمراً . والدولة البلقانية الوحيدة التي يمكنها أن تقف في وجه السلافيين هي اليونان وتشاء القدرة الالهية أن تكون العلاقة بين اليونان والبلغار كالعلاقة بين الماء والنار . وبلغاريا ليست حبيبة روسيا فقط بل هي محط أنظار الانكليز أيضاً .

ولا يخفى على أحد أن المنظمة البلقانية في لندن وزعت أموالا طائلة لتقوم العصابات البلغارية بأعمال السلب والنهب والتخريب في مناطق الحدود . ولو لم تكن اقتصاديات بلغاريا في الحضيض لبدأت بالهجوم دون انتظار .

إن الحرب بيننا وبين بلغاريا أمر محتم لا يمكن تجنبه .

---

(١) أي : القومية السلافية وتضم البلغار والروس .

بلغاريا والوحدة البلقانية (١٩٠٣)

هناك في بلاد الروم [١] عشرون ألفاً ينتمون لمنظمات سرية تهدد حدودنا ، فهل يجدي إنكار الأمير «فرديناند» Fsrdinand'a أو سعي الحكومة البلغارية لاجراء المصالحة ، وتعجب الدول الكبرى من تجنيدنا العساكر واستعدادنا لمحاربة البلغار في سبيل إقامة السلام . وقد تفاهمت روسيا مع النمسا على إرسال جيش مشترك لمحاربتنا . وستدخل السفن الفرنسية مياهنا بناءً على طلب روسيا . وتبحث الصحافة الفرنسية عن تحالف بين الأمم البلقانية ، كما تذكر هذه الصحافة أن التحالف القائم بين دول صربستان ومونتينفرو وبلغاريا ورومانيا واليونان سيضم أيضاً ثمانية عشر مليوناً من النصارى في مكدونيا والبوسنة والهرسك ، لكن الاختلاف وعدم الثقة بين هذه الدول سيحكم عليها بالضعف وببقائها تبعاً لدول أخرى .

الحقيقة أن حكمنا في أوربا مدين لاختلاف دول البلقان

---

(١) أي اليونان .

فيما بينها ، فالصربيون يبغضون البلغار ، والبلغار يشمئزون من الرومانيين ، والرومانيون والبلغار واليونانيون يعادي بعضهم بعضاً . والبلغار يؤمنون بأنهم قوم متفوقون على باقي الأقوام في مكدونيا ، واليونان يدّعون بأن البلغار يُكرِهون اليونانيين على التخلي عن قوميتهم . وقد أدى الصراع الكنسي عام ١٨٧٠ الى فصل البلغار عن اليونانيين فصلاً تاماً ، فاذا كانت هذه هي الحالة ، فكيف يفكر الروس في إمكانية اقامة وحدة بين دول البلقان .

انكلترا ودولة بلغاريا الكبرى (١٩٠٤)

غادر السفير الانكليزي استانبول قبل فترة لإجراء محادثات وصفت بأنها هامة ، وقد أبدت انكلترا في هذه المباحثات عدم اعتراضها على انشاء دولة بلغاريا الكبرىالتي تمتد حتى بحر إيجه ، ويظهر أن انكلترا تفكر في جعل بلغاريا سداً منيعاً يقف في وجه المد الروسي . واذا استطاع البلغار بمساعدة من انكلترا استعادة ما فقدوه من الأراضي في معاهدة « ويستفاليا » Vestefalya قلبوا ظهر المجن صوب الروس أصدقائهم القدماء . أما إنكلترا فتسعى إلى إحساس بلغاريا بأنها مدينة لها بعض الشيء ، ويحتمل أن يكون القصد من زيارة السفير الانكليزي إثارة قلقنـــا ، فمن الصعب أن يفهم المرء مرامي سياسة حكومة « سانت جيمس » Sant - James لكن أغلب الظن أن السهام موجهة هذه المرة صوب روسيا .

إن كل الأحداث السياسية في الشرقين الأدنى والأوسط هي حصيلة الصراع بين روسيا وانكلترا . إذ تطرق روسيا كل باب في سبيل الوصول الى الهند بينما تبذل انكلترا أقل جهد ممكن للحيلولة دون تحقيق هذا الهدف .

ومع هذا فإن هناك تياراً في لندن يسعى الى جعل مضائق البوسفور والدردنيل مفتوحة بغية إرضاء روسيا التي تحتاج الى المضائق حاجة ماسة وفي مقابل هذا العرض يُطلب من روسيا تعهدها بعدم اللجوء الى الطرق التي ستؤدي بها الى الهند . لكني أرى أن هذه الأفكار لا تحمل طابعاً جدياً لأن فتح المضائق أمام الروس سيؤدي الى تعريض التواجد الانكليزي في قناة السويس للخطر ، فإن هذه القناة أهم موقع يحرص الانكليز على بقائه في أيديهم .

البلغار والروم

أخطأ الباب العالي في عدم ممانعته في انفصال الكنيسة الرومية ــ الأرثوذكسية كما أخطأ « عبد العزيز » عندما رضخ لمطالب روسيا في إعطاء الكنيسة البلغارية في استانبول حق الرعاية إذ أن إنشاء دار الرعاية عام ١٨٧٠ يعتبر بداية لتاريخ الحركات القومية البلغارية حيث أصبحت أسقفية «أوهري واسكوبيا » Ohriveüsküp مركزاً للدعاية البلغارية .

لقد اضطررنا بكل أسف ، في كثير من الأحيان الى حماية

البلغار من أجل تلقين اليونانيين درساً في الأدب ، ولا يمكنني أن أرضى بالاتهـــام المضحك القائل بأن حمايتي للبلغار كانت خطيئة سياسية مني . الحقيقة أنني – وإن لم يحالفني النجاح – عملت منذ اللحظة الأولى على مكافحة السياسة الروسية المعادية للسلافية في البلقان .

روسيا (١٩٠٤)

يسرنا كل إنجاز تحظى به اليابان ، فإن انتصارها على الروس هو انتصارنا وحشد روسيا جيوشها في الشرق الأقصى يعني تخفيف قوتها الضاربة في البحر الأسود ، إنهم بلا شك سيعيدون الكرّة علينا ، إذا فرغوا من تلك الجبهة ، وسيجربون حظهم لجعل البحر الأسود بحيرة روسية بعد فشلهم في بحر البلطيق ، هذا أمر من السهل أن يعرفه كل إنسان ، فأنهار «دنيبر» Dingeper و«دينيستر» Dingester و «الدون» Don وكذا بعض روافد «الفولغا» Volga – وهي أهم الأنهار الروسية – تصب في البحر الأسود ، وستستخدم روسيا هذه الأنهار في الوصول الى الدردنيل لتصل بعد ذلك الى البحر الأبيض المتوسط .

لا شك أن إزالة الموانع الموجودة في المضائق أمر مهم جداً للروس ، لكن بقاء المضائق في أيدينا مسألة حياة أو موت بالنسبة

لنا . ولو لم تكن هذه القضية سبباً في جعلنا عدوين لا يمكن التوفيق بينهما لكنا أحسن دولتين صديقتين . فـــإن هناك تشابهاً في الجملة والتفصيل بين إمبراطوريتينا . وتشابهاً في صفات الشعبين تجعلهما تحلان الصداقة مكان العداوة المتأصلة بينهما منذ أقدم العصور .

وثمة أمر مشترك آخر . وهو أن لنا عدة ملايين مـــن المسلمين في روسيا ولهم أناس من الكنيسة الأرثوذكسية يعيشون في الأراضي المقدسة بفلسطين وتقوم روسيا برعايتهم . إن عدم الإمكان في توصلنا الى طريقة للتعايش السلمي مع روسيا أمر جدير بالأسى والأسف .

الملك « إدوارد السابع Edward » (١٩٠٤)

لم أكن أعلم أن ملك انكلترا يتميز بمثل هذه الحنكـة السياسية . لقد أعجبني كثيراً تصرفه اللبق الذي تغلب به على دهاقنة السياسة المتغطرسين على ضفاف نهر « السين » Sini . فعندما قام رئيس جمهورية فرنسا بزيارته — رداً على الزيارة التي قام بها الى باريس أمر الملك بتحديد التحركات الانكليزية في قناة السويس (١٩٠٤) ليكون جو المباحثات بينهما مناسباً . ولولا سياسة الألمان الفاشلة ، لما ارتمى الفرنسيون في أحضان الانكليز وقد استمر الملك «إدوارد» Edward في سياسته المدروسة ووعد الفرنسيين حرية الحركة في مراكش .

قال كامبون ، إنه عندما عقد معاهدات خاصة مـع انكلترا ، حصل فيها على حقوق لفرنسا في مصر . الا أننا نعلم جيداً بأن مثل هذه الاتفاقات تشبه الى حد كبير الشباك المعقودة بعقد مطاطة . ولا بد أن يكون ممثل الجانب الانكليزي اللورد « لاندزدون » Lansdoune قد أخفى ضحكاته الساخرة

من الفرنسيين ، وبسمات النصر من المنافع التي اكتسبها نتيجة هذه المباحثات .

ليت « ليسبس »[1] Lesseps المسكين يعلم ما يجري حوله من أحداث .

(١) يعني : المهندس الفرنسي الذي أشرف على حفر قناة السويس .

الفصل الثالث

الشخصية الإسلامية

الرجوع إلى الإسلام

أرسل الله تعالى رسوله الى البشرية وقد كانت في ظلام دامس ، فحول ظلامها الى نور وجاهليتها الى أصالة ورحمة وعدوانها الى سلام وسعادة ورشاد .

وعلينا ألا ننسى بأن أوربا كانت في ظلمات الجهل بينما وصلت الأمم الاسلامية الى أعلى مراقي الحضارة الانسانية الأصيلة .

وفي الوقت الذي قام فيه الصليبيون بغزو البلاد الاسلامية بحجة إنقاذ بيت المقدس فدمروا البلاد وقتلوا العباد ، وقفنا نحن في وجوههم فأثبتنا مبلغ عظمة أمتنا .

فإذا كنا نريد أن نحيا من جديد وأن نستعيد قوتنا ونبلغ عزتنا التي كنا فيها ، علينا أن نرجع الى المعين الذي أخذنا منه تلك القوة ، فالخير كل الخير في رجوعنا الى إسلامنا وإلى شريعتنا ، والشر كل الشر في تقليدنا للحضارة الأوربيــة الزائفــة .

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد ، وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » [1] .

الإسلام دين الحضارة

لقد أنطق الله رب العزة البروفسور « وامبري» Vambery'ye بالحق حين قال : « إن وصف الاسلام بأنه عدو الحضارة ، هو عمل الجاهلين الحمقى والمتعصبين . أو هو شيمة النصارى المقلدين » . وأضاف « إن فكرة أن الاسلام عدو الحضارة لا تستحق حتى الرد الجدّي عليها » .

لقد أظهر المسلمون في القرون الوسطى براعتهم في شتى نواحي العلوم والفنون ، فكيف يوصف ديننا بأنه عدو التقدم . أليس هذا أمراً مضحكاً ، أو تعامياً عن الحقيقة ؟ ولم يكن «وامبري» أول من يعترف بهذه الحقيقة ، بل أعرف كثيراً من الأوربيين ممن تعرفوا الى الثقافة الاسلامية أو الثقافة العثمانية . يشاركون ذلك البروفسور في هذا الرأي .

يجب علينا أن نعترف بأنه دخل في الاسلام شيء مـــن

---

(١) سورة الفاتحة : ١ — ٧ .

البدع ، أما الأسس الثابتة فقد بقيت ساطعة ثابتة ، كما حدث مؤخراً بعض التغير النفسي البطيء في المسلمين .

العقيدة الإسلامية الأصيلة

بأي حق يتهجم جهلة أوربا على ديننا ؟ هناك بعض من النصوص الآمرة في الاسلام شديدة في ظاهرها ، أما في حقيقتها فهي مرنة وسهلة التطبيق ، وفي الديانتين اليهودية والنصرانية نصوص كثيرة من هذا القبيل .

إن القرآن يأمرنا بالفضيلة دائماً ، والاسلام ليس بأدنى في مبادئه من اليهودية والنصرانية ، بل هو دين القوة في كل زمان وكل مكان ، وهو أكمل الأديان قاطبة وأقواها .

أما حرية العقيدة ، فلم تلق احتراماً في أي بقعة من بقاع الأرض كما لقيته في البلاد الاسلامية . وليس على وجه الأرض أمة فيها كَرَمُ أمتنا ، إذ كنا ملجأ لكثير ممن طردوا من أوطانهم . وقد تحملنا خطر الحرب ضد روسيا فآوينا البولونيين .

إن سبب تعثرنا في خطانا هو انعدام التماثل بين الشعوب التي تعيش داخل امبراطوريتنا ، حتى النصارى عندنا ينقسمون الى مذاهب وطوائف ، وطبيعي أن يكون لهذا الوضع الأثر الكبير في التفكك ، وإذا أمعنا النظر في أوضاع بعض الدول كألمانيا مثلاً نجد أنها مبتلاة بمثل ما ابتلينا به .

إن اجتماع أديان ومذاهب مختلفة في دولة واحدة أمر ضار ، إذ يتصارع أتباع هذه الأديان والمذاهب ، فيؤدي هذا الصراع الى إضعاف سلطة الدولة .

ـ التسامح ـ

إن اتهامنا بعدم التسامح إن دلّ على شيء فإنما يدل على جهالة صاحب الاتهام . لو أننا أقللنا من التسامح الذي كنا فيه لما آلت امبراطوريتنا الى الحال الذي نحن فيه الآن ولكُنّا في وضع أقوى وأمتن . ولو أجبرنا الفئات غير المسلمة على اعتناق الاسلام في بلادنا لما كنا نأسف اليوم على الفرقة الناشئة عن اختلاف الدين . ولا زلنا حتى يومنا هذا مستمرين في إعطاء الحقوق والامتيازات لغير المسلمين .

ومثال آخر على تسامحنا هو الزواج من غير المسلمات ، لقد تزوج كثير من كبار موظفي الدولة بفتيات من النصارى دون أن يلقوا أي عناء ، فسفيرنا الحالي في لندن توفيق باشا ، متزوج من امرأة سويسرية ، وسفيرنا في باريس رفعت باشا متزوج من ابنة ضابط روسي ، أما الضباط الذين أُرسلوا ببعثات الى الخارج فقد عاد أكثرهم بزوجات نصرانيات ، حيث وجدن السعادة الزوجية الحقيقية . فكيف ينكرون والحالة هذه تسامحنا ؟

فاذا وقعت بعض حوادث الشدة بين حين وآخر ، فلسوء أدب بعض الجاحدين وهو أمر طبيعي يقع في كثير من البلدان ، وحتى النصارى يتعاملون أحياناً بكل قسوة ووحشية وكذلك أتباع المذاهب النصرانية ، لا يتعايشون فيما بينهم ، وفي أحيان كثيرة تقع حوادث دموية بين الرهبان من مذاهب مختلفة في أعيادهم بفلسطين ، الأمر الذي يؤدي الى تدخل جنودنا لإعادة الأمن والنظـــام .

« النصيب » كلمة طالما أضرت بالناس ، وأوقعتهم في مصائب ، ولا مكان في القرآن لفكرة النصيب [1] ، بل لقيت ، رواجاً في القرون الأخيرة على ألسنة الناس ، بسبب كسلهم وقلة فهمهم . وأصبحت « إن شاء الله » ملجأ لكل من يريد ستر ضعفه وخموله . إن رسول الله ﷺ ، أمر المسلمين بالاتكال على الله [2] ، لكنه لم يأمر بالاستسلام للكسل والخمول

---

(١) بل في القرآن آيات تدل على أن للإنسان ثمرة عمله وكسبه ، قال تعالى : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) . وقوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) وقوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

(٢) والرسول صلى الله عليه وسلم أمر بالاتكال على الله مع الأخذ بالأسباب كقوله للأعرابي : « اعقلها وتوكل » واستعاذ النبي من الكسل فقال :

« اللهم إني أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر » وقال : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل » .

بحجة القدر ، فكل إنسان مكلف بالجد والسعي والتفكير ، ومن جد وجد ومن زرع حصد . أما الأتراك فلم يدركوا هذا المعنى ، وأما السوريون والعرب فهم أحسن وعياً من الأتراك . وقد طبق النصارى هذا المفهوم الاسلامي أحسن تطبيق مع أن الإنجيل يأمرهم « لا تجهد نفسك في التفكير عن الغد » ان الله يرعى الطير في السماء والحيوان في الأرض ويرعاكم » ومع ذلك فالنصارى يفكرون ويعملون ويتقدمون أما المسلمون فواقفون ينظرون .

التعصب

لا يزال الأوربيون كلما أرادوا الحط من قيمتنا أو الإساءة إلينا ، يستعملون كلمة « تعصب المسلمين الشديد » . ويقصدون به ، ما يدعونه بأعمال القمع الدموية . إن حب الوطن عند النصارى يصبح أعمال قمع عندنا ، وكأنهم هم وحدهم يحبون أوطانهم .

وإذا كان النصارى يحبون أوطانهم ، فنحن نحب ديننا الذي يأمرنا بحب الوطن ، هذا هو التعصب الذي ينسبونه الينا . إن كل مسلم مؤمن يعتز بدينه . وقد أمر الاسلام بالمساواة بين المسلمين وبحماية الضعيف وحب الخير ، والابتعاد عن الشبهات والأساطير والخرافات . إننا قوم أعزنا الله ورفعنا بهذا الدين .

الدعوة الى الاسلام

يظهر أن « صادق بك » قنصلنا العام في جاوا ، قد بالغ في

الدعوة الى الاسلام ، أو تصرف بغير لباقة ، حيث شكت الحكومة الهولندية إلينا . ولا أظن أنه في تصرفاته يدعو الى الثورة . لقد طالب في مرات كثيرة رفع الأذى عن المسلمين وإعطاءهم حقوقاً تساوي الحقوق الممنوحة للأوربيين ، ولم يجانب الصدق مرة أو يخرج عن نطاق عمله الرسمي . إن القسم الأعظم من النشاط التجاري في « جاوا » هو بيد العرب حيث يدفعون نسباً عالية من الضرائب تفوق ما يدفعه الأوربيون بكثير . ومن الطبيعي بل ومن حقنا أن نسعى إلى إكسابهم حقوقاً تساوي على الأقل الحقوق التي يتمتع بها الأوربيون .

علمت أن وفداً من العرب المسلمين من أعيان «باتافيا» Batavya يريد مقابلتي لتقديم احترامه وولائه ، بصفتي خليفة المسلمين . فعلى الرحب والسعة ، إن هذه الزيارة بادرة طيبة سيثبت للكفار مدى قوة الأواصر بين المسلمين . على كل حال اننا نساند بكل قوة مطالب إخواننا المسلمين العادلة في «جاوا» (١)

انتشار الاسلام

أحرز الاسلام نصراً عظيماً وفتحاً مبيناً أضيف الى انتصاراته السابقة ، إن هذا الدين هو الروح التي تسري في جسم البشرية فتحييها ، وتغزو القلوب فتفتحها .

---

(١) جزيرة في أندونيسيا .

لناق نظرة على الفرنسيين ، وقد احتلوا شمال إفريقيا ، فبالرغم من حضارتهم ودعوتهم المحمومة الى الكنيسة الرومانية ، فلم يحالفهم النجاح ، ولا يزال الناس على عهدهم بالاسلام .

وفي قابيل (١) كان يعيش الى مدة قريبة ٢٥٠,٠٠٠ نصراني ، دخلوا الآن كلهم في دين الاسلام ، كما علمنا بارتياح بالغ بخبر اسلام قبيلة بكامل أفرادها ، حيث تعيش في آسيا الوسطى . (١٨٩٥) . وفي افغانستان أسلمت قبيلة وثنية وكانت ترفض الدخول في أي دين ، عدد أفرادها /١٥٠,٠٠٠/ وإسلام هذه القبيلة انتصار إسلامي كبير .

أهمية الاسلام في الأرض

ان بلادنا كانت وستبقى قلعة للايمان وحصناً حصيناً لهذا الدين . فاذا زال المفهوم الديني عن الامبراطورية العثمانية ، فقد دالت دولتنا ، وإنه لمن دواعي الأسف وقوع بعض الشعوب المسلمة تحت نير استعمار الدول الكبرى ، ولم يبق داخل الامبراطورية سوى عشرين مليوناً من المسلمين . ومع هذا فقلوب المسلمين جميعاً مرتبطة باستانبول . وقد نجح أعداؤنا في التغلب على قوانا المادية لكن قوانا المعنوية ستبقى صامدة .

---

(١) كذا في الأصل Kabil ولعلها مدينة في أفريقية .

يجب علينا أن نقوي صلاتنا بالبلدان الاسلامية ، وأن يكون التقارب أحسن مما هو عليه الآن . ولا أمل لنا بالمستقبل إلا بالوحدة ، فإن بقاء الوحدة الاسلامية يعني بقاء انكلترا وفرنسا وروسيا وهولندا تحت نفوذنا . حيث أن كلمة واحدة من الخليفة تكفي لاعلان الجهاد في البلدان الاسلامية الواقعة تحت سيطرة هذه الدول مما يؤدي الى وقوع الكارثة بالنصارى .

ولا بد أن يأتي يوم يقوم فيه المؤمنون قومة رجل واحد ويحطمون أغلالهم .

هناك ٨٥ مليوناً من المسلمين يحكمهم الانكليز و ٣٠ مليوناً يحكمهم الهولنديون و ١٠ ملايين يحكمهم الروس . ومسلمون في مناطق أخرى من آسيا وأفريقيا ، حيث يبلغ المجموع العام ٢٥٠ مليوناً ، يرجون من الله النصر ويوجهون أنظارهم وآمالهم صوب خليفة المسلمين . فهل يجوز لنا في هذه الحال أن نبقى ضعافاً أمام الدول الكبرى ؟ .

الخلافة والشيعة

يجب علينا أن نقوي الأواصر الاسلامية ، بحيث يتساند مسلمو الصين والهند وافريقيا مع باقي المسلمين في شتى أنحاء الأرض . وإنه لمن دواعي الأسف ألاّ يقوم أي تعاون بيننا وبين إيران ، وقد كان عليها أن تسعى الى التقارب معنا كيلا تصبح

ألعوبة بيد روسيا وانكلترا .

قال لي السيد جمال الدين [1] : « يمكن توحيد السنة والشيعة إذا أظهر كل منهما حسن النية تجاه الآخر » . لقد قوّى هذا الشيخ أملي في التقارب ، فإذا تحققت هذه الأمنية تحقق به إنجاز عظيم للاسلام .

ووعد قنصل إيران في استانبول الحاج ميرزاخان بذل جهوده لتحقيق هذا الهدف ، كما جمع « جمال الدين » عدداً من أنصار هذه الفكرة في داخل الامبراطورية ، وفي إيران ، وسيؤدي هذا السعي الى تقارب أكثر بين الدولتين وإن لم يحقق الهدف . يجب علينا مضاعفة الجهود وبذل التضحيات لجعل ذلك الأمر المنشود حقيقة ملموسة .

إذ يقول الله تعالى في كتابه الكريم « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » [1]

الاسلام والفكرة القومية

إن الامبراطورية العثمانية دولة احتوت عدداً كبيراً من الأمم والشعوب . وتشكلت من الأتراك والعرب والأكراد

---

(١) هو جمال الدين الأفغاني .

(٢) البينة : ٥ .

والأرناؤوط والبلغار واليونان والزنوج [1] ، حيث جمعتهم الرابطة الإيمانية وجعلتهم أفراداً في عائلة واحدة . فعلينا — والحالة هذه — أن نعتبر أنفسنا مسلمين قبل أن نكون عثمانيين ، وأن تكون صفة خليفة المسلمين فوق صفة الامبراطور العثماني . فإن الدين هو أساس البناء السياسي والاجتماعي للدولة .

علينا أن نعترف — وبكل أسف — بأن الانكليز استطاعوا بدعايتهم المسمومة أن يبثوا بذور القومية والعصبية في بلادنا . وقد تحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا ، وظهرت في سورية بوادر تحرك مماثل .

حب الوطن

بدأ بعض الشباب الذين اكتسوا قشور الحضارة الأوربية بإلقاء خطب في الدعوة الى حب الوطن . لكن حب الوطن في بلادنا العثمانية يجب أن يأتي في المرتبة الثانية بعد حب الدين الذي يحتل المرتبة الأولى . أليس الكاثوليك في أوربا يقدمون الكنيسة الكاثوليكية والبابا على الوطن . .

بذل الانكليز جهوداً كبيرة في الدعاية للإقليمية في البلاد الاسلامية ، بغية إضعاف هيبتنا ، وقد لقيت هذه الدعاية قدراً من الرواج ، فخدع بها كثير من المصريين وبدؤوا بالانتقاص من الاسلام ومن خليفة المسلمين .

(١) كذا في الأصل ، علماً بأن الزنوج لم يقعوا تحت الحكم العثماني .

الذين يعتنقون الاسلام

إن عدد معتنقي الاسلام من الأوربيين في تزايد مستمر ، وقد بعث سفيرنا في باريس قائمة بأسماء ستة منهم . وبعد مدة وردتنا من لندن قائمة بأسماء عدد كبير من الانكليز ، فطلبت من سفرائنا عدم ارسال مثل هذه الطلبات الينا بعد الآن ، وإفهام الناس هناك بأن استبدال دين بدين لا يحتاج الى أي اجراء رسمي . إذ هم يظنون أن الأمر يتطلب شيئاً يشبه التعميد عند النصارى . فالاسلام هو الاستسلام التام لله ، الأساس فيه الايمان ، ويكفي المرء أن يقول معتقداً « لا إله الا الله محمد رسول الله » . وقد عرف الانسان ربه عن طريق الوحي فمن آمن به أسلم . فعلى سفرائنا أن يوضحوا هذا الأمر للأوربيين واذا احتاج الأمر الى إعلامنا فليعلمونا في حالات استثنائية .

نرجو لكل من أدرك جمال الاسلام وغاص في أعماقه أن يهديه الله فيعتنق هذا الدين الحنيف .

علمت أن السفير الأمريكي استغرب من عالم آثار أمريكي يقيم منذ مدة طويلة في «اسكي شهر» [1] اهتداءه للاسلام ، أما أنا فأستغرب استغراب هذا السفير . وقد أسلم ملايين النصارى على مدى العصور . بعد أن عرفوا في هذا الدين أصالتـــه وقداسته . وعلينا أن نقدم للسيد السفير قائمة مطولة بأسماء الذين درسوا العقيدة الاسلامية فتركوا عقيدة الصليب ودخلوا في دين الله . وهناك عدد كبير من رجال الدولة العثمانية كانوا في السابق نصارى من البندقية وجنوه والبوسنة والمجر وألمانيا وانكلترا . فمن لا يعرف أحمد باشا (بونيفال) Bonneval وعمر باشا (جاتا البوسنوي) Cata a dlibir Bomali ومحمد علي باشا اسمه الأصلي (ديتريوت » Detriote من « مايابورغ » Magdebsurg وصفر باشا ، وغيرهم ممن أحبوا الاسلام فنبذوا النصرانية ليقبلوا هذا الدين الحنيف .

هذه هي الحال . فلا يعجبن أحد من اهتداء عالم أمريكي يقيم في « أسكي شهر » ولا يظن أنه أمر نادر الوقوع .

---

(١) اسم مدينة في تركيا ومعناها : المدينة القديمة .

مكافحة التبشير النصراني

ما زال النصارى ينفقون الملايين في سبيل نشر النصرانية ببلاد الاسلام . وقد كان عليهم أن يفهموا من قبل بأن الحظ لن يخالفهم في هذه البلاد ، فاذا صدف أن وُفق المبشرون النصارى في اجتذاب البعض فتلك استثناءات قد تحصـــل بإغراءات مادية لصعلوك أو مجنون ولا يقبل النصرانية إلا ظاهراً .

إن الاسلام يعتبر التثليث – وهو أساس عقيدة النصارى – انتقاصاً لعظمة الله سبحانه – وحاشا لله – . قال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) [1] ، إن الله أعظم من أن يحتويه عقل الانسان . أما تشبيهه بأشياء محسوسة وتصويره بما يشبه البشر ، فليس في نظر الانسان العاقل سوى الكفر بعينه .

---

(١) النساء : ٧٢ .
والأنسب أن يذكر هنا قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) النساء : ٧٣

والاسلام ينتشر في شتى بقاع الأرض ، وفي أفريقيا على وجه الخصوص ، ذلك لأنه دين الفطرة الانسانية . (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) [1] .

---

(١) الإسراء : ٩ .

الصراع بين أنصار الهلال وأنصار الصليب

يبرهن الأوربيون بشتى الطرق أنهم مستمرون في صراعهم ضد الاسلام والمسلمين ، يدّعون الرقي والحضارة والثقافة وهم أهل الأساطير والخرافات ، ومن يلق نظرة في التاريخ يعرف أيهم أرقى فكرياً : المسلمون أم النصارى . والأوربيون المحايدون يثنون على روح الشهامة والعدل والرجولة والوفاء والفروسية لدى محاربينا في القرون الوسطى وما بعدها ، أما القساوسة المتعصبون فيدعون الناس الى مناصبة العداء للمسلمين . يتهموننا بالظلم والوحشية لينسى الناس الفظائع التي ارتكبتها الحملات الصليبية . وقد أباحوا لأنفسهم صنوف الأكاذيب ليستفزوا شعوبهم ضد المسلمين ، ولا بأس عندهم بالخيانة والغدر اذا كانت الخيانة والغدر تستنهض الهمم لمعاداة الاسلام .

لم يكن هناك أي مبرر لإراقة الدماء من الجانبين من أجل بيت المقدس . لقد سمح المسلمون للحجاج النصارى بزيارة الأماكن المقدسة في كل وقت . إن مسجد عمر هو من المعابد الاسلامية المقدسة . أما القدس فهي المدينة المقدسة الثالثة بعد مكة والمدينة وهي محاطة من جميع جهاتها بالمسلمين ، فليقل النصارى ما يشاؤون ، أما الأراضي المقدسة فنحن أصحابها .

مسألة الرق

عجباً للأوربيين كم يجهلون أعرافنا وقوانينا ، إنهم عندما يتكلمون عن الرق في الشرق يتصورون الحالة المحزنة التي يعيش فيها الأرقاء في أمريكا مع أننا لا نجوِّز تسمية العلاقة الحميمة بين السيد والخادم عندنا بأنها رق .

فالقرآن الكريم يأمرنا بمعاملة الخدم معاملة حسنة . والواقع أن الخدم تبعٌ لسادتهم ، حياتهم محدودة ، لكن قوانينا الصارمة تحول بين السيد والمعاملة السيئة للخادم . وليس هناك رق في امبراطوريتنا بمعناه الحقيقي . ولا شك أن الجواري عندنا أسعد حالاً من الخادمات الأوربيات . إنهن يرتبطن بالبيت الذي يعشن فيه ، تحمي حقوقهن الأعراف والعادات المتبعة .

وينظر البعض الى تجارة الأسرى نظرة اشمئزاز مع أن الأمر عبارة عن بيع وشراء حسب الأصول ، وتوفير أناس يخدمون في البيوت خدمات طويلة الأجل . ويُدفع قسم من قيمة الشراء للتاجر والقسم الآخر للأسير أو لأهله ، وبهذه الوسيلة يجد كثير من الأطفال الذين يعيشون في الأزقة تحت رحمة الجوع

والمرض يجدون بيتاً دافئاً ينعمون فيه بالحياة . ويعاملون فيه أفراداً في أسرة واحدة ، وعندما يكبرون يعمل الذكور كمساعدين لسادتهم في أعمالهم . أما الإناث فيتزوجن ويصرن أمهات لأولاد سادتهن .

الفصل الرابع

سياسة الإصلاحات

المــــدارس

إن المدارس الخاصة تشكل خطراً كبيراً على بلادنا ، وقد كان خطؤنا جسيماً إذ سمحنا لكل دولة في كل زمان ومكان بإنشاء المدارس التي يرغبونها . والآن نجني ضرر مـــا زرعنا ، سمحنا لهم بفتح هذه المدارس ، فقاموا يعلمون الطلاب أفكاراً معادية لبلادنا ، فسأحاسب وزير المعارف عـــلى إهماله ، وقد يكون السبب في هذا الإهمال افتقاره الى جرأة التصدي ، أينتظر هذا الوزير أن أقوم شخصياً بهذا العمل ، الحقيقة أن التصدي لهذه المدارس ليس بالأمر الهين ، إذ يظهر أمامنا قنصل دولة أو سفيرها فيحميها من أن تطالها أيدينا .

لقد ارتفع عدد المدارس منذ اعتليت العرش الى عشرة أضعاف ما كانت عليه ، (٢٠٠٠٠٠ مدرسة) ومع ذلك فلا تفي هذه المدارس بالحاجة ، والمدارس الثانوية عندنا على مستوى عال من المناهج ، تعترف به الأوساط العلمية ، ونحن بحاجة الى فتح مدارس اعدادية تهيء الطلاب لدخول مؤسسات علمية ليتخرج منها مهندسون ومعماريون وفنيون .

وفي بلادنا عدد كاف من الموظفين والجنود . إننا بحاجة الى تطوير المعاهد العليا ، وهذا أمر في غاية الصعوبة ، بسبب جمود علمائنا المفرط . أما الأزهر في مصر فقد فهم علماؤه ضرورة الاستجابة لمتطلبات العصر ، فاستقطب عدداً كبيراً من شبابنا ، فاذا بقيت معاهد استانبول لا تقدر على تخريج علماء مؤهلين ، فلن تصل أبداً إلى ما وصل اليه الجامع الأزهر .

التعليم الزراعي

إن الزراعة أساسٌ في غنى البشرية ، وتمثل المرتبة الأولى بين الأعمال في الدولة العثمانية ، فهي الغذاء لجميع الكائنات الحيــــة .

يجب علينا أن نسعى الى تطوير الانتاج الزراعي قبل كل شيء فأراضينا هي أراض خصبة ، وعلى مزارعينا أن يتلقوا العلم الزراعي الحديث حتى يتمكنوا من رفع مستوى الزراعة عندنا الى المكانة اللائقة بها .

وقد أرسلنا بعثة تعليمية الى فرنسا للتدرب على مكافحة حشرة «الفيلوكسيز» ، كما سنرسل بعثة مماثلة الى ألمانيا للاطلاع على أصول تربية الحيوان .

أنشئت أول مدرسة زراعية في بلادنا في سلانيك من قبل «فيتاليس» أفندي . ويقال : إن الطلاب يتعلمون الشيء الكثير

في الأراضي المخصصة للتجارب . وفي سبيل افتتاح مدرسة « حلقه لي » نبذل جهوداً كبيرة . وبعد افتتاحها ستكون الدراسة فيها مجانية ، ولن تدخر الدولة أي جهد في سبيل الحصول على نتائج طيبة . ولنا وطيد الأمل في تخريج خبراء شباب في الشؤون الزراعية والحيوانية وفي الشؤون الحيوية الأخرى .

وقد كان لمركز تربية دود القز ومدرسة التشجير في « بورسة » الفضل الأكبر في صناعة الحرير والأشجار المثمرة . وهناك ضرورة إلى إنشاء مدارس للتشجير والزراعة في كل ولاية . إن دائرة الديون العمومية هي أول من يستفيد من هذه المؤسسات . فكان عليها أن تتولى إنشاءها ،

والحقيقة أن فلاحينا بطيئون في أعمالهم ، وسيمضي الوقت الطويل قبل أن يستوعبوا ما يتعلمونه في هذه المدارس . ولكن لا بد من التطور الزراعي وإن كان بطيئاً .

تعليم العثمانيين في المدارس الأجنبية

علينا أن نصرف النظر عن إرسال طلاب من الطبقات العليا الى أوربا وبقائهم هناك سنين عديدة ، وأن نرسل بدلاً عنهم طلاباً من سائر الطبقات لمدد قصيرة ، ليطلعوا هناك في فرنسا أو ألمانيا على الحضارة الأوربية ، ولن يجدوا الوقت الكافي الا لتعلم الأمور النافعة ، فيتسع أفقهم الفكري فيعودون الى

بلادهم سالمين غانمين ، دون أن يجلبوا معهم سموم تلك الحضارة .

لقد بذلنا جهوداً كبيرة كي يتلقى شبابنا العلوم الأوربية . ويوجد الآن في ألمانيا فقط ١٥ طبيباً و ٢٤ ضابطاً ، وعدد كبير من الطلاب الزراعيين وغيرهم . كما أرسلنا عدداً مماثلاً إلى فرنسا .

ويتعين علينا كبح التسابق بين النظراء (١) في هذا الشأن ، فإنهم يصرفون أموالاً طائلة على هؤلاء الشباب ، الأمر الذي يؤدي الى فتح جرح عميق في خزينة الدولة .

التعليم لدى العثمانيين

إن من يعرف العثمانيين لا بد له من أن يعترف بأن هذه الأمة بطبعها وطبيعتها وإدراكها ليست دون غيرها من الأمم . ولا يعجبن أحد من الأمية المتفشية فينا ، فلم تكن أمتنا يوماً تتهرب من تعلم القراءة والكتابة ، فإن رغبتها في العلم لا تقل عن رغبة سائر الأمم والشعوب . لكن الصعوبة تكمن في كيفية تعلم هذا العلم .

إن من يملك شيئاً من رجاحة العقل ، لا يعادي العلم ولا

---

(١) اي الوزراء .

يمنع أي شيء جديد ، شرط أن يكون علماً نافعاً ، أما العلم الضار فأنا أعاديه الى آخر نَفَس في حياتي .

الآداب والفنون لدى العثمانيين

يجب علينا ألاّ ننسى بأننا نحن العثمانيين أصحاب حضارة عظيمة وعريقة ، ولن ننخدع بالحضارة الأوربية .

صحيح أننا لم نضف شيئاً جديداً على الآداب والفنون ، وكانت فنوننا تتمة للفن الفارسي ، لكننا صبغنا هذا الفن بصبغة خاصة بنا . والفن المعماري وشعراؤنا الذين تجاوز عددهم الألفين خير دليل على قولنا . ففي أشعار «فضلي» و «لامع» و «باقي» أبدع صفات الجمال ، وكذا المتأخرون منهم أمثال : «غالب» و «برتو» و «كمال» و «عبد الحق حامد» وبالرغم من أن بعض آثار هذين الأخيرين لا تعجبني ، فإن هذا لا يعني أنهما ليسا من كبار الشعراء .

من المفروض علينا أن نتخذ من بساطة الفن القديم عندنا أساساً في مزجه بالفن الحديث ، وأن نتحاشى تقليد الأجانب في صناعة السجاد والصناعات الأخرى .

لقد أخطأ كُتابنا حينما اتخذوا الروائيين الفرنسيين قدوة لهم . علينا أن نبني فنوننا وآدابنا على أسس هي من صميم أمتنا وواقعنـــا .

التجديد في التقويم

لقد آن الأوان لكي نعتمد التقويم «الغريغوري» [٢] في المواقيت . ولن يكون هذا الأمر مستحيلاً كما يقول شيخ الاسلام ، إذا نحن أحسنّا التطبيق ، بعد وضعه في الموضع الصحيح . لا شك أنه سيحدث هياجاً كبيراً لكن النفع في اعتماد هذا التقويم كبير أيضاً .

والواقع أن الاحتفال بذكرى جلوسي ينظم كل سنة حسب التقويم الجديد (٣١ آب) ولم يردني أي انتقاد جدي من أي مواطن حتى الآن . إن فرق الاثني عشر يوماً فيما بين التقويم القمري والتقويم الشمسي [١] ، يؤدي بعد مدة الى فروق كبيرة وفوضى في الحساب .

ومن المفيد أن نشكل لجنة خاصة لدراسة الاصلاح التقويمي الذي نفكر فيه .

التطور الفكري والإصلاحات

إن ما يسميه البعض بالجمود الفكري ، وليد أسباب تختلف

---

(١) وهو تقويم شرقي .

(٢) ينبغي في البلاد الاسلامية الاحتفاظ بالتقويم الهجري والأشهر القمرية ، ولا بأس أن يذكر إلى جانبه التقويم الشمسي لمعرفة الفصول وتحديد أوقات الزراعة وغيرها .

عمّا يذكره الأوربيون . ومن يتتبع الأمور سيجد أنه بعد اعتلائي العرش العثماني حدثت تطورات فكرية ، وليس هناك جمود حقيقي . والواقع أن حركتنا الفكرية بطيئة لكنها تتقدم بخطى وئيـــدة .

إن التطور لا يمكن أن يحدث تحت تأثيرات وضغوط خارجية . فلا بد أن يكون تطوراً نابعاً من صميم الواقع ، بشكل طبيعي وباتجاه صحيح .

والدولة العثمانية . بسبب توسعها المفاجىء والسريع ، أشبه ما تكون بشاب ضعيف البنية ، لا تقدر بنيته على ممارسة حركات سريعة . وتكون هذه الحركات وبالاً عليها ان هي مارستها . والتجديد الذي يطالبون به تحت اسم الاصلاح سيكون سبباً في اضمحلالنا . ترى لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان . بهذه الوصية بالذات ؟ لا شك أنهم يعلمون علم اليقين أن الاصلاح هو الداء وليس الدواء ، وأنه كفيل بالقضاء على هذه الامبراطورية . يتظاهرون بالحزن والأسى على حالتنا المتأخرة ، ويسعون — عن خبث — الى القيام بأي عمل كان لما يسمونه برفع مستوانا ، إن الدول الأوربية تحتاج الى اصلاحات لا حصر لها . إنني معجب بالتطور الصناعي في أوربا وأمريكا ، وأعترف بأننا متأخرون عن هذا الركب أكثر من قرن . أما إذا قسنا الحالة التي نحن فيها الآن بالحالة التي كنا فيها قبل اعتلائي سدة الخلافة ، آخذين بعين الاعتبار ، الأوضاع العالمية السائدة ،

فإننا نستطيع أن نقول بأننا في صدد تطور طبيعي ، أو الأصح في صدد تطور سريع .

الإصلاحات

إذا أردنا أن نتبنى بعض الاصلاحات ، فعلينا أن نأخذ في الحسبان الظروف السائدة في البلاد . وألا نقيس الأوضاع على أساس المستوى الفكري لحفنة قليلة من الموظفين . ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ما هو أوربي .
إنهم يمزقون الأوامر فور تلقيها وإن كانت أوامر سلطانية .
إني على يقين من صحة تصرفاتي في تلمس الظروف المواتية قبل اتخاذ أية خطوة في تنفيذ الإصلاحات ، والتقدم البطيء في هذا المجال ، وستأتي الأجيال القادمة بعدنا . فتأخذ الجانب الحسن من الحضارة الغربية فتصقله بمفاهيم شرقية وتصنع منهما حضارة جديدة متكاملة .

والأوربيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضارتهم جملة وتفصيلاً . مع أن أكثر رجال العلم يعترفون في أن الثقافة العثمانية الاسلامية جديرة بالهيمنة ، كالثقافة الغربية على أقل تقدير ، ولا شك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوربين . علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ومن تلقاء أنفسنا ، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة .

من الظلم الفادح أن نتهم بمعاداه كل شيء جديد يأتي من الغرب . يجب ألا ننسى أن في التأني السلامة والنجاة ، وفي العجلة الندامه .

الشرق والأوربيون

إن طراز التفكير عند الأوربيين وعند النصارى طراز غريب مليء بالتناقضات فلا يستطيع الانسان أن يحدد رأيه فيهم، فيوماً تراهم عريقين صادقين ويوماً سفلة ظالمين ، كتابهم المقدس يأمرهم بالمعروف فلا يسمعون ، إنهم أناس لا يؤمنون بمبدأ ولا يدينون بدين . يستصغرون رب العالمين ، تعالى الله عما يقولون ، لقد جاءنا أناس منهم بصفة أساتذة أفاضل ، فأصابتنا الدهشة عندما عرفناهم وعرفنا دناءتهم . إن مفاهيم الحياة عندهم تغاير مفاهيمنا ، والبون بيننا شاسع والهوة سحيقة ، كيف يمكننا أن نفكر في التعاون معهم في مثل هذه الظروف ؟ .

سموم الحضارة الأوربية

إن الأفكار المستوردة من أوربا تشكل خطراً كبيراً علينا وكارثة أليمة ، أرى من حولي المسلمين فأجدهم فطريين سعداء ، فلا أملك إلا أن أقاوم هذه الأفكار الأوربية بكل ما أوتيت من قوة ، إنها سموم تخرب العقول والقلوب .

ولا بد أن نأسف لحال شبابنا الذين أصيبوا بالمرض الأوربي . وسيكون لهؤلاء الشباب تأثير سيء على مواطنيهم واخوتهم في الدين .

إن الاسلام لا يعادي التطور والرقي ، لكنه يرفض التطور المستند الى مبادىء غريبة عنه ، فلا بد أن تكون مبادىء تطورنا من صميمنا وواقعنا .

حقوق الأمم — الهلال الأحمر —

ماذا تعني كلمة حقوق الأمم ؟ إذا نظرنا الى التاريخ لرأينا أن الانسان قد اتخذ سخرياً . إن فكرة حقوق الانسان فكرة طيبة صدرت من أناس راجحي العقول ، لكن تاريخ فتوحات الأمم كاف لأن يدحض هذه الفكرة من أساسها . لأن السيطرة دائماً للأقوياء والحق دائماً مع القوة . حيث نرى أمم أوروبا الآن قد اشتدت في علاقاتها معنا لأنها هي الأقوى ونحن الأضعف .

وإذا رجعنا قليلاً الى الوراء ، وجدنا أننا أبرمنا معاهدات ضمان مع الدول الكبرى ، من أجل وحدة أراضينا ، وبالرغم من العهود والمواثيق فانها اغتصبت ولاياتنا واحدة تلو أخرى وضربت عرض الحائط حقوق الأمم والشعوب . لذلك فلا قيمة لجمعية الهلال الأحمر وقد اشتركت في مؤتمر جنيف ، وأخشى ألا يقيم النصارى لها أي اعتبار . أما في رأينا فقد حققت جمعية

الهلال الأحمر ما طلب منها وقد خصصنا لها مبالغ ضخمة . وتقوم النساء في الحروب في بعض الدول بتخفيف عناء بعض الرجال عن طريق جمعياتها . أما المرأة عندنا فلا تستطيع القيام بهذه الخدمة لا في الحروب ولا في المستشفيات .

المرأة المسلمة

يحمل الأوربيون في أذهانهم عن المرأة المسلمة أفكاراً خاطئة وبالتحديد في موضوع تعدد الزوجات . أما الوضع في أوربا وأمريكا فيختلف عما نحن فيه . فالتعدد عندهم يأخذ شكلاً آخر . وتعدد الطلاق ومعاشرة الخليلات في البلاد النصرانية يثبت بما لا يقبل الجدل أن أكثر الرجال يؤثرون العيش مع أكثر من امرأة .

أما في الاسلام فقد قال نبينا العظيم « النساء شقائق الرجال » وقال « استوصوا بالنساء خيراً » إذاً فلا مجال لأن يلحق بنسائنا أذى أو هوان .

والقرآن الكريم أعطى القوامة للرجل ، كما أمر الانجيل بذلك . وفي تركيا تؤثر المرأة في أسرتها وفي محيطها تأثيراً يتناسب مع قابليتها . وبقرار فيه الخير كله ، منعت المرأة من التدخل في الشؤون السياسية ، وبقيت هذه الشؤون حصراً على الرجال . فالمرأة سيدة بيتها وصاحبة المقام الأول في قلوب أبنائها ، فكيف

ينكر الأوربيون دور نسائنا في الحياة الاجتماعية ؟ .

إن كثيراً من رجال الفكر والمجتمع في كثير من البلدان لا يستسيغون إعطاء المرأة الحرية الزائدة لتجول وتصول في النوادي والمجتمعات ، وليقوم الرجل — وهو صاحب العبقريات والاختراعات — بالخدمة المنزلية بدلا عنها . ويقال إن هذا الوضع سائد في أمريكا .

إني أرى النساء الأوربيات في الاستقبالات ، بنظراتهن المتعجرفة ، فأقارنهن بالنساء المسلمات ، فتترجح عندي كفة النساء المسلمات .

فبم يتهجم الأوربيون على نسائنا ؟ هل هناك مجال لمقارنة أخلاق نسائهم بأخلاق نسائنا ؟ أليست المرأة الشرقية أوفى وأصدق وأجمل من المرأة الأوربية ؟ . المرأة عندنا تهب نفسها لبيتها ، وترتبط بزوجها ، أما الأوربية فحريتها الزائدة تحرمها كثيراً من صفات الأنوثة .

إذا فرضنا أن نصف ما يكتب في أوربا وينشر في صحفها صحيح فما علينا إلا أن نشفق على الرجال الأوربيين .

الحـــريم

ينتشر الآن في الأوساط النسائية أفكار أوربية تدعو الى حرية المرأة . وقد قامت زوجة شريف باشا في الآونـــة الأخيرة بنشاط محموم للدعوة الى الحرية النسائية ، إنها دعوة غريبة ، يجب وضع حد لها مهما كانت النتائج .

لقد كان الاسلام محقاً ومنطقياً إذ منع المرأة من العمل في المجال السياسي وأمرها بالبقاء بعيدة عن الاختلاط بالرجال . فالاختلاط يثير شهوة الرجال فتنقلب قوتهم ضعفاً وعزمهم خوراً . إن البيت هو المجال الطبيعي للمرأة ، تربي أولادها وتساعد زوجها . أما تعدد الزوجات في الاسلام فقد كانت له لدى العثمانيين نتائج عكسية إذ انصرف أكثرهم الى الحياة الجنسية ، فلم تتحقق بذلك الغاية المرجوة من هذا التشريـــع الاسلامي . أما العاقل فيهم فلم يتزوج إلا واحدة . والاسلام عندنا سمح بتعدد الزوجات ووضع شروطاً تجعل هذا التعدد ممكناً نظرياً . والواقع أن أكثر الرجال يفضلون العيش بزوجة واحدة ، فالظروف المعاشية صعبة وقاسية وكثرة النساء تضر

الانسان في صحته وفي ثروته .

هناك أمر آخر يحدث ضرراً بالغاً في مجتمعنا ، وهو كون الطلاق أمراً سهل الايقاع ، فبهذا النوع من الطلاق قد يتزوج المرء بأربع نساء دفعة واحدة ، وعلى هذه الحال لا بد أن يأتي يوم نُضْطر فيه الى الحد من التعدد .

إن تعلم نسائنا أمور التدبير المنزلي مسألة حيوية ، فأكثر نسائنا يجهلن مثل هذه الأمور ، ولا شك أن المرحلة الأولى من حياة الانسان تكون على أيدي النساء في البيوت فانهن يؤثرن على تربية الطفل ، كما أن المرأة الجاهلة لا تكون زوجة تصلح للمعاشرة .

ويجب على الرجل أن يفهم بأن المرأة ليست غرضاً من أغراض الزينة في بيته بل هي شريكته ورفيقة عمره .

اللامبالاة والكسل

إن صفة اللامبالاة قد ترسخت في كافة طبقات الشعب وأصبحت عادة من عاداته . وقد تكون هذه العادة سبب جميع مصائبنا ، هناك الكثير ممن يجدون السعادة في الكسل والقعود ، فيسلمون القياد لهذه السعادة .

كنت في شبابي من المرتمين في أحضان الكسل والبطالة . لكني فكرت في النتائج ورأيت أن اللامبالاة أودت بأخي الى الجنون وعدم المسؤولية ، فبادرت الى انقاذ نفسي من هذه الخطيئة .

على رجال البلاد ، أخص منهم الأساتذة والعلماء ، أن يعمدوا الى الناشئة لتخليصها من البطالة — وهي اللذة الضارة — وحضها على العمل من أجل الوطن والأمة . فان لم نستطع التغلب على الارتخاء المتأصل فينا فكيف يمكننا إنقاذ امبراطوريتنا .

العمـــل

إن أساس الأزمات عندنا نابع من قعود الرجل العثماني عن العمل والإبداع . لقد تعود أن يبقى سيداً يأمر غيره بقضاء حاجاته . فالمهم عنده أن يعيش وأن يستمتع بملذات الحياة .

وقد أصدر شيخ الاسلام بناء على تعليماتنا ، بياناً أوضح فيه أن الله تعالى حض على العمل وأن العمل لا يعد نقيصة في الانسان ، وسيتلى هذا البيان في المدارس في جميع المناسبات .

أما شبابنا ، فيخططون لأن يتخرجوا موظفين أو ضباطاً في الجيش أو علماء دين ، فلماذا لا يفكر العثماني في أن يصبح تاجراً كبيراً ، أو صناعياً مبدعاً . يمكنه أن يتخذني قدوة في العمل . إنني أمارس مهنة النجارة [1] . أليس من العيب أن

---

(١) اشتهر السلطان عبد الحميد بكونه أستاذاً بارعاً في صناعة النجارة وقد أهدى إلى « توفيق باشا » وزير الخارجية منضدة وأدوات كتابية اشتغلها بنفسه من خشب الآبانوس . وفي قصر يلدز غرفة خاصة بالسلطان عبد الحميد اشتغل الأدوات الخشبية الموجودة فيها بنفسه =

يجهلوا هذه الفنون وهذه الصناعات ؟ . من الضروري أن نسعى الى الخلاص من الحالة التي نحن فيها .

التشاؤم عند العثمانيين

ان كل إنجاز عندنا يتعرض في كل مرة للانتقاد والانتقاص ، والمنتقدون على الأغلب هم السادة الشباب الذين يظنون أنهم هم وحدهم القادرون على أداء كل شيء ، لقد أصيب رؤساء الدوائر والموظفون والعساكر بمرض تشاؤم لا برء منه ، يتعامون عن كل عمل نافع أنجزناه . إنهم يرون من خلف عدساتهم السوداء كل شيء أسود ، لا يريدون أن يفهموا بأننا في تقدم مستمر بالرغم من مؤامرات الأعداء والصعوبات الأخرى . المتشائمون الذين يستصغرون كل ما هو عظيم هم عناصر تثبيط للهمم والعزائم ، ووجود هؤلاء بيننا سبب تعاستنا . لو استطاعوا أن يفهموا الظروف التي نعيش فيها لعدلوا عن انتقاداتهم العقيمة ، ودعاياتهم الضارة ، ولتفاءلوا وعملوا مع العاملين من أجل الهدف المشترك .

إنني أطلع عن طريق جهاز المخابرات ، على كل قول يقوله

= وبسبب اهتمامه بفن النجارة تقدمت هذه الصناعة في معمل النجارة الملحق بقصر يلدز . انظر عصر السلطان عبد الحميد ص ٩٢ .

أي إنسان في أي مكان . فالشباب والشيوخ يعادي بعضهم بعضاً ، كل جانب يحسد الجانب الآخر على منصبه ومقامه . يتخذون الحسد والأنانية مبدأً في تدبير أبشع المثالب والمؤامرات ، وأبشع هذه الأصناف هو صنف السادة المثقفين ثقافة أوربية .

نحمد الله أن شعبنا لم يصب بمرض التشاؤم لأن المسلم الحقيقي هو المتفائل دائماً .

الفصل الخامس

الشخصيّة

الشخصيــة

أكثر من مرة ، تعرضت للانتقاد بسبب عيشي عيشة انزواء ، أحسست فيهـا دائماً بالراحة ، إن الانسان ينشأ تحت تأثير الظروف التي هو فيها ، وللتربية والتعليم دور خاص وعظيم في هذه النشأة .

لعلهم ينسون الظروف التي نشأت وترعرعت فيها ـ لقد عاش إخوتي من بنين وبنات حياة مليئة بالعطف والدلال بينما كان أبي يعاملني معاملة سيئة وقاسية ، لأسباب أجهلها . لم يعطف عليّ سوى أخي مراد المسكين ، كانت حياتي منذ بدايتها متسمة بالجدية ، ما أحببت اللعب أبداً . بدأت أفكر في الكون والوجود وأنا في مقتبل العمر . وكان حبي للخيال سبباً في تعرضي لزجر أساتذتي ، وتكدير والدي ، وقد أدى عدم تفهم الناس لأفكاري إلى انطوائي على نفسي انطواء كاملاً (١)

---

(١) روى المسيو « دوريس » في مؤلفه الذي وضعه عن حياة (عبد الحميد) الخاصة أنه كان غلاماً يميل إلى العزلة والانفراد...بينه=

وعندما اعتليت كرسي الحكم خلفاً لأخي ، وجدت نفسي محاطاً بأناس يريدون تقييدي بشباك من المؤامرات والدسائس . ولكي أحافظ على حياتي وعرشي قررت أن أردّ مكرهم بمكر أدهى وأمرّ . ولقد عرفت — وليتني ما عرفت — طباع الناس في حبهم المنحرف لملذات الحياة ، وارتضاءهم الذل في سبيلها ، كنت أشعر بالقرف من التزلف الذليل ، فاذا كان ابتعادي عن الناس صحيحاً فذلك هو النتيجة الطبيعية لما تعرضت له في هذه الحياة . أما الذين يعرفونني من قرب فإنهم يعرفون أنني رجل لين طيب القلب كما أن حياتي العائلية تثبت بأنني رحيم القلب ومحتاج للحب والعطف .

أركان القصر

تظن الصحافة الأوروبية أنني أحكم الامبراطورية العثمانية تحت تأثير بعض أركان القصر . وتبدي قلقها إزاء هذا الوضع المزعوم .

لا بد لكل حاكم من مستشارين وأمناء سر ، وأمراء أوربا

= وبين إخوته وأخواته فرق عظيم في الأخلاق والعادات ، فكان يتهرب دوماً من إخوته لا يشاركهم في ألعابهم . بل ينتحي ناحية ويأخذ في مراقبتهم وملاحظة ضحكهم ولهوهم بنظرات حزينة في بعض الأحيان يتخللها بريق يدل على الخوف والحذر . انظر عصر السلطان عبد الحميد ص ٦٨ .



(السلطان عبد الحميد الثاني)

محاطون بأناس حريصين على كسب الثقة والتأثير بشتى الوسائل . أما أنا فيمكنني أن أقول بأنني لم أقع تحت تأثير أي رجـل استشرته . إنني بطبيعة الحال أستشير أحد الكتاب حيناً وأحد أمناء السر حيناً آخر ، وأحد الوزراء اذا اقتضى الأمر . لكن القرار دائماً هو القرار الذي أتخذه بمفردي .

أعرف جيداً أن كبار الموظفين في «يلدز» أناس غيورون ، وأنهم لا ينفكون يدبرون الدسائس لكل من هو محظوظ لدينا ، أعرف ما يجب عليّ أن أقوم به حيال هؤلاء المتآمرين ، أعلم أن ناظر البحرية « حسن باشا » رجل يحب أن يملأ جيوبه بالمال ، ومدرك بأن الشعب ينظر الى « عزت باشا » شزْراً . لكنه إنسان يتميز برجاحة عقله وإخلاصه . أما ناظر الخارجية « توفيق باشا » فرجل عفيف وجريء ومثالي أعجب الديبلوماسيين قاطبة ، فلم يريدون مني تبديل هؤلاء بغيرهم ؟

كيف يريدون مني أن أستبدل « توفيق باشا » برجل لا يملك الأصالة ولا الصفاء ، تافه ، لا يؤمن إلا بالمكر والخداع ؟. أما « عصمت » فلا يجانب الصدق قط ، إنه ليس بذي عقل علمي رياضي ، لكنه صاحب رأي سليم ، أستمع اليه وأستفيد من رأيه ، أجده محبباً الى نفسي بصدقه وإخلاصه ثم بكونه أخاً لي في الرضاع .



(السلطان عبد الحميد الثاني)

الموسيقا

وصلتني في أحد الأيام ثلاث نوطات موسيقية أعدّت لشرفي ، لقد زاد الأمر عن حده ، فبلغ عدد الملحنين الذين أهدوني قطعات موسيقية الألفين من أمم وقوميات مختلفة . فكيف نكافىء هذا العدد الضخم من الناس ؟ على سفرائنا أن يكونوا أكثر يقظة كي أستريح من عناء هؤلاء السادة الملحنين . لم نعامل هؤلاء كما يعاملهم غيرنا من الحكام بل قلدناهم أوسمة وأرسلنا اليهم كتب ثناء ، فأصبحنا تحت ضغط عدد هائل من المؤلفات الشعرية والموسيقية ولو اكتفينا بتوجيه رسائل شكر دون هدايا لكادوا يتميزون من الغيظ . إنه لم يحدث أن قام امبراطور ألمانيا ولا غيره بتكريم من أهداه أثراً من آثاره إلا ما ندر . فهل من الضروري أن أقدم الهدية لكل من تمكن من الوصول الى استانبول ودخل القصر مع سفير بلاده ، ليدفع إلينا أثراً من آثاره ؟. ناهيك عن أنني لا أتذوق موسيقاهم الأصيلة ، لا شك أن هذه المؤلفات تتطلب جهداً عظيماً ، لكني أحب الموسيقا الهادئة دون ما يُكيدُ الذهن منها . ولست من عشاق الموسيقا كي أحب الموسيقا الكلاسيكية .

إن لابني برهان الدين استعداداً قوياً للموسيقى .والمقطوعات التي ألفها تسر سامعيها . وأنا أطرب عند سماعي لمؤلفاته ، وقد علمت أن الأمير الشاعر نيكيتا مونتزغو اهتز طرباً عند سماعه لإحدى المقطوعات التي ألفها ابني برهان الدين .



(السلطان عبد الحميد الثاني في شبابه)

« عبد الحميد الشحيح »

أعلم أن بعض الناس ينعتونني بالشح ، فلا أحتد لهذا النعت بل أعتبره مدحاً لي . أعرف كيف أنظم حساباتي ، ولا أحب أن ألقي مالي هنا وهناك إسرافاً ، تعلمت الأرقام وأنا في السنوات الأولى من عمري . شهدت حياة البذخ التي كان يعيشها عمي ، وشاهدت عن قرب ، النتائج المؤسفة لهذا التبذير . أليس الإسراف هو الذي أوصل امبراطوريتنا الى ما وراء الإفلاس ؟ لم يحدث أن صرفت أموالاً على لهو أو على أمور يمكن أن تجر البلاد الى ضائقة مالية ، كما حدث عند كثير من الحكام . إنني مدين بحالتي المادية الجيدة للمحاسبة الدقيقة والاستثمار المعقول .

الحقيقة أن تكاليف القصر كبيرة ، لكن البعض يبالغ كثيراً في هذه التكاليف . إننا إذا أخذنا في اعتبارنا كثيراً من العوائل التي تعيش على حسابنا لأمكننا أن نقول بأنني أعيش بمبالغ أقل بكثير من معظم حكام هذا العصر .

يتهمني أعدائي بجمع ثروة طائلة ، والحقيقة أنني جمعت



(السلطان عبد الحميد الثاني في شبابه)

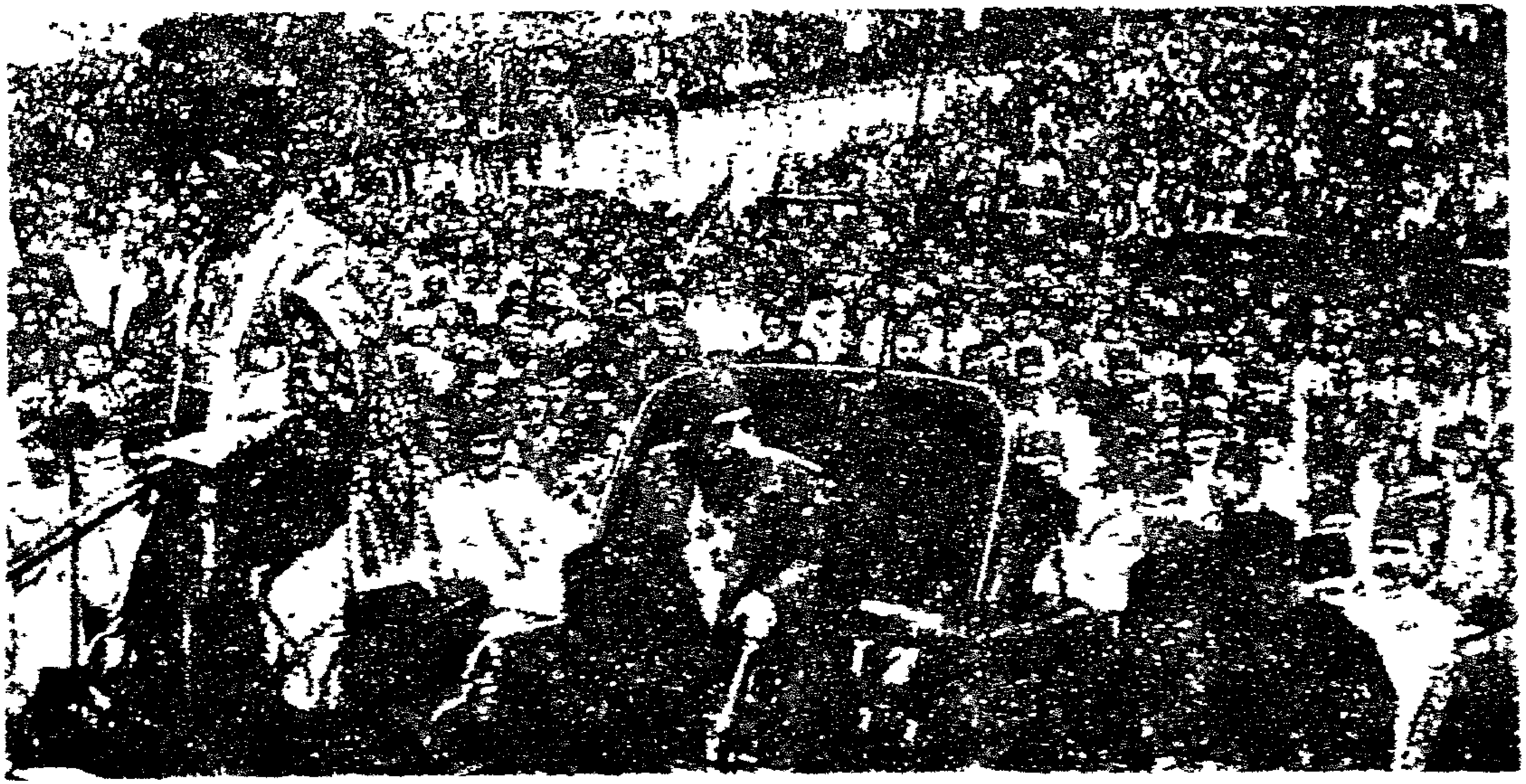
مبلغاً كبيراً بفضل الاستثمار الجيد ، ووضعته في الخارج في مكان أمين جداً . وأعتقد أن هذا التصرف صحيح إذ ليس في استانبول مصرف يمكن الاعتماد عليه حالياً ، ولا داعي للاستغراب فكل حاكم يعمل ما عملته ، فاذا احتاجت خزينة الدولة الى دعم — كما حدث أيام الحرب مع اليونان — سحبت هذه الأموال من الخارج ودعمت به الخزينة .

القيل والقال في الشرق

ليس على وجه الأرض قيل وقال أكثر مما في استانبول . فالمحافل النسائية والحمامات هي أعشاش الكلام الفارغ ، وإن أكثر الحوادث تتعاظم وتكبر في « بلك أوغلي » [1] ثم يتلقفها صناع الكذب من الأرمن والروم فيضيفون اليها قصصاً وحكايات لا تصدق ، لتصير حوادث خيالية . وإني لأعلم بأن شخصيتي موضوع خصب لهذه القصص والحوادث المزعومة .

وفي الفترة الأخيرة حاول صحفي فرنسي الاستفادة من قصة خيالية قديمة تقول بأنني خشيت من سفن المنشقين أن تضرب القصر الذي كنت أقيم فيه فانتقلت الى قصر يلدز . إنها أكذوبة فاضحة لا يقبل بصحتها أي عاقل . إن السفن

(١) حي في استانبول .



(السلطان عبد الحميد الثاني في طريقه لأداء صلاة الجمعة)

يمكنها أن تضرب قصر يلدز بكل سهولة .

لقد كان القصر السابق مليئاً بذكريات عمي عبد العزيز وأخي مراد السيء الحظ . فما الذي يجبرني على الاقامة في ذلك القصر ؟ خاصة وأن هذه الذكريات تكفي لأن تكون مصدر حزن دائم للانسان .

ثم إن مضيق البوسفور مليء بالضباب . أما المكان المرتفع ففيه الهواء النقي الصحي ، لهذه الأسباب أخترت قصر يلدز ، أنعمُ فيه الآن بالشمس والهواء والضوء والجمال . ومعلوم أن قسماً من حديقة القصر شيد بأمر من والدي رحمه الله . إنني أكن لهذا المكان الجميل حباً خاصاً من عهد شبابي .

الجاسوسية

معلوم أن التجسس أمر معيب ، وكذلك التقارير التجسسية التي نشرتها الصحف ، لكننا لا نستطيع الاستغناء عنه ، لا أظن أن في أي بقعة من بقاع الأرض دسائس ومؤامرات مثل التي تحاك في بلادنا . إلا أنني أعرف التمييز بين التقارير الصحيحة والتقارير الكاذبة .

لقد تعرضت للاغتيال مرتين . وإني مدين بنجاتي من هاتين المحاولتين الى يقظة بعض رجالي المخلصين . إن كثيراً من الضباط والموظفين الكسالى هم سبب تعاستنا . هؤلاء لا يعجبهم

الرجال الذين جئت بهم واخترتهم ليسدوا الى الوطن بعض الخدمات ، أو الذين أنشأتهم كي يكونوا رجال المستقبل . ويعتبرونهم بلهاء . ويظنون أن ليس سواهم من يمكنه إنقاذ البلاد والعباد . ولذلك قاموا بالتجسس وتدبير كل أنواع الدسائس والمؤامرات . فاذا فشلوا عمدوا الى الإساءة والافتراء على خليفة المسلمين .

المطبوعـــات

تخلصت من كابوس حقيقي بعد أن فهمت تفاهة الابتزاز الذي كنت ضحيته ، إن قدرة المطبوعات الأوربية لا غبار عليها ، لكن « سعيد باشا الصغير » بالغ في تقديرها . لقد سلكنا في تعاملنا مع الصحافة الأوربية مسلكاً خاطئاً . فأعطينـــا للمقالات التي نشرتها عنا وعن سياستنا قيمة أكثر مما تستحق ، كما كلفتنا الصحافة الفرنسية غالياً . فالصحفي اليونـــاني « نيكولايدس » Nikolaides الذي يعيش في باريس يقبض منا كل عام مبالغ طائلة كي يصدر جريدته « نوتر أورغان » Notreorhane .

لقد كان علينا أن نفهم في أوانه ضرورة عدم الاكتراث بالقيل والقال ، وكان حرياً بالأوسمة التي وزعناها وكأنها أدوات زينة ، أن توزع على بعض الصحفيين كي يقفوا الى جانبنا . فإنهم إذا حازوا على هذه الأوسمة كانوا صوتنا

المسموع في كل مكان . ولكن فات الأوان وأصبحت آلاف الصحف في الصف المعادي. وأملنا أن تحلّ هذه الصحف بعد فترة فننصرف النظر عن تهجمها .

من الغريب أن يكون عدد الصحف التي تلتزم جانب الحق والصدق في مقالاتها وأخبارها قليلاً ، والحقيقة أن حصول المراسلين على أخبار صحيحة ودقيقة من خلف الأستار والكواليس أمر صعب المنال . لذلك يعمد هؤلاء الى سوق الأكاذيب فيجدون فيها مبتغاهم .

من واجب كل عثماني أن يسعى الى الحيلولة دون اطلاع الأجانب على الثغرات الخفية لدولتنا . لقد آن الأوان لأن نعرف بأن الأجانب غير مستعدين لتفهم مواقفنا .

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

الفهرس